عبد الستار ناصر

جمهورية العوانس

ومسرحيات أخرى قصيرة

الكتاب: جمهورية العوانس (ومسرحيات أخرى قصيرة)

الكاتب: عبد الستار ناصر / كاتب عراقي

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

ناصر، عبد الستار

جمهورية العوانس ومسرحيات أخري قصيرة/ عبد الستار ناصر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **0 – 37 – 5772– 977**

أ – العنوان رقم الإيداع : **4316**

جمهورية العوانس

إن الحث على القراءة والذهاب إلى المسرح هو خير ما نشير به إلى الأفراد والجاعات في جميع الأمم والشعوب، وفي الشعوب العربية بوجه خاص، بل هو خير ما يقال إلى الإنسان منذ تحضر وإلى الآن.

طه حسين

من مقالته (زاد الشعب)

لا أدري كيف نعلم أولادنا الأخلاق وكيف نزرع فيهم الذكاء إذا لم نأخذهم إلى المسرح العظيم؟

ع.ناصر

إن قراءة الكتب والمسرحيات الجيدة هي كمن يناقش الصفوة الممتازة من عباقرة القرون الماضية.

ديكارت

أول حرب جميلة

المسرح مقسوم إلى نصفين، شرفة قصر باذخ وامتداد أفقي يوحي ببقية غرف القصر – ذلك هو الجانب العلوي الأول – أما النصف الثاني – أسفل – فهو خشبة المسرح وما سوف يدور عليها من أحداث إنما تجري تحت عيون أهل القصر من خادمات وحراس وطباخين و.. سيدة القصر الوحيدة.

ديكور المسرحية – أسفل – مجرد رصيف ودكة من أسمنت يمكن جلوس شخص واحد عليها، المكان موحش بعيد عن ضجة العاصمة، يسمع المشاهد خرير ماء يأتي من خلف الغرف المضاءة، باقات ورد وصنوبر في أجزاء من القصر تعطي انطباعاً عن غنى وخطورة من يسكنه.. ضوء خافت أسفل المسرح وثمة في أقصى زاوية من الخشبة مصباح طريق من النوع الذي نراه في الشوارع العامة مع شجرة يوكالبتوس لا يبدو منها غير نصفها.. بينما يعم الضوء خصاص نوافذ القصر على امتداد زمن المسرحية.

الشخوص:

سيدة القصر: امرأة تقترب من الخمسين، ما زالت تحتفظ بجمالها.

الرجل: في الثلاثين من العمر، على جانب من القح الذي يختلط بوسامة غامضة.

لواحظ (وصيفة السيدة): امرأة في حدود الأربعين، ملامح تقترب من القسوة، برغم أنها على جانب (وقح) من الجمال.

نساء ورجال ليس المهم – هنا – رسم وتحديد عددهم وملامحهم، بل يمكن قيام كل واحد منهم – منهن – بأكثر من دور واحد، ذلك أن حضورهم – حضورهن– إنما يرسم بقية اللوحة التي أساسها الرجل وسيدة القصر.

الزمان: نهاية حرب.

المكان: أي مكان.سيدة القصر تنظر بارتياب إلى حيث يجلس الرجل، ما إن ينظر الرجل (مصادفة) صوب المكان الذي تتحرك فيه السيدة حتى تلتفت بسرعة أو تشغل نفسها بالنظر نحو مكان آخر.. يتكرر المشهد (بالتناوب بينهما) أكثر من مرة، وما إن تختفي السيدة داخل قصرها، حتى نرى الرجل وهو يتطلع إلى البيت الكبير بحسرة وألم وهو يشير بيديه إلى محاسن القصر إحساساً بالخسارة أو ندماً – ربما – على الحال الذي هو فيه.

الرجل ينظر إلى القصر نظرة شاملة متفحصة، يكاد لا يترك زاوية أمام عينيه إلا ومضى يطيل النظر إليها بشيء من الحنين والتأوهات التي تنطلق خافتة بين لحظة وأخرى، بينما يشارك دخان سجائرة في رسم لوحة الألم والخسارة معاً..

سوف يرى المشاهد سيدة القصر – من خلف زجاج البيت الخارجي – وهي تكلم بغضب مع الوصيفة، تشير بيدها إلى الرجل دون أن نسمع أي شيء من حوارهن، لكننا – بوضوح– سنفهم من حركاتهن، أن حالة من الضجر والارتياب والشك تطغى على السيدة والوصيفة معاً.

لئلا يتسرب الملل إلى المشاهد بسبب المشهد الذي لا يتغير على خشبة المسرح، يكون من المناسب العمل على ابتكار أسلوب ما في الديكور أو تحريك شخوص المسرحية بطريقة ذكيرة فطنة لا تأخذ من الفكرة ما ينقص من شأنها بل على العكس ربما تساعد على تطويرها صوب قناعات أفضل.

اختيار الموسيقى يصبح بطلاً في عمل كهذا، لذا ينبغي العناية بهذه الملحوظة لا يسما وأن الحوار لا يستمر بين أبطال المسرحية، بل يأخذ حالة من حالات النفور حيناً والقطع بين جملة وثاينة حيناً آخر حسب قناعات المخرج، وتصبح الموسيقى بذلك هي نقطة الضوء التي تصب في قاع مظلم يضاء بها فوراً.

(تفتح باب الشرفة بعد غياب السيدة بوقت قصير)

الوصيفة (دون أن تشير إلى الرجل):

– منذ أيام وأنت لا تفارق هذا المكان، منذ أيام وسيدتي تسأل عنك، ماذا تريد؟ سيدتي هي التي تسأل: ماذا تريد؟

الرجل ينظر إليها، ثم يلتفت نحو الشارع صوب شجرة اليوكالبتوس غير مبال بما قالت الوصيفة.

الوصيفة (وهي تشير بإصبعها):

– ابتعد، ابتعد من هنا، لا ترغمنا أن نلجأ إلى طردك بالقوة.

الرجل يبتسم وهو ينظر إلى وصيفة القصر، دون أن ينطق بشيء.. ثم يتحرك بهدوء، يمشي ثلاث خطوات بطيئة جداً، إذا به يرجع ثلاث خطوات في الطريق نفسه، ليجلس على دكة الأسمنت، يدخن سيجارة، ينفث دخانها صوب السماء..

الوصيفة (برغم غضبها الخفي ما زالت تسيطر على كلامها، بل وتعمل على تنغيم حنجرتها بذكاء ممزوج بالبرود):

– اسمع يا رجل، اسمع، سيدتي لا يرضيها اقترابك بشيء، لو كنت في مكانها لقلت (لهم) أنك لص، وسوف يأخذونك وننتهي منك.. ابتعد من هنا، انقذ نفسك أيها الصغير قبل أن تغضب سيدتي.

الرجل (كلامه بطيء جداً، صوته عميق يشبه تقاسيم ناي يأتي من قرار بعيد):

– لم يعد في الشمعة غير الذبالة، أخبري سيدة القصر، أنكم جميعاً تملكون الحق في إضافة خنجر آخر على جروحي.. لكنني سأنتظر.. أنا، هنا، سأنتظر، عندي أسبابي..

الوصيفة (ينتابها إحساس غرب بسبب الصوت الذي لم تألفه من قبل):

– س.. سيدتي هي.. سيدتي وحدها.. أريد أن أقول.. سيدتي وحدها صاحبة الحق في الجواب.. عفواً.. في الجواب عليك..

تختفي (الوصيفة) بينما خدم القصر في حركة دائبة يراها المشاهد من خلف النوافذ المضاءة.. صمت يوحي بشيء يشبه العاصفة، لكن المسرح – برمته – هادئ تماماً، والرجل وحده يتحرك، يدخن، ينظر إلى شرفة القصر تارة، إلى أرضية المسرح تارة، إلى الدخان الذي يتناثر من سيجارته تارة أخرى.

تظهر سيدة القصر، وهي تدخن سيجارتها الممتدة في (سبيل) خشبي رفيع كما (كونتيسات) روما، ترفض أن تنظر إلى الرجل، بينما باحة القصر توحي أن ثمة حفلة صاخبة ومأدبة عشاء ستقام بعد قليل.

السيدة بلطف كاذب – تنفث سيجارتها بقوة:

– ماذا تريد؟ أخبرني.. ماذا تريد؟ وصيفتي قالت إنك ترفض أن تغادر هذا المكان.. ملابسك رثة. إذا كنت فقيراً تعال وخذ ما تشاء، ليس من المعقول بقاؤك هذا الوقت كله أمام بيتي.. ماذا تريد؟

ثم تنظر إليه:

– ماذا تريد؟

الرجل يضرب شيئاً بحذائه، ينظر إلى السيدة بشيء من الحرقة، ثم ينظر إلى الأرض، يتكرر الحال نفسه مرة ثانية، دون أن ينطق بشيء.

السيدة وهي تضحك:

لا أدري لماذا أسمح لك أن تأخذ بعض وقتي؟

ثم (وهي تخفي رأسها صوب الرجل من أعلى شرفة القصر):

– تعال أخبرني.. من أنت؟ رجل ماكر؟ ورع تقي أنت أم لص عابر؟ من أنت ولماذات أنت هنا؟ لماذا أنت هنا أمام بيتي؟ ألا تدري أن القبض عليك لا يأخذ مني غير نصف ساعة فقط؟ ألا تخاف؟ هه.. ألا تخاف؟

الرجل (بكلامه البطيء القوي، بصوته العميق الذي يأخذ شكل الحفر في الخشب):

– أنا يا سيدتي، معذرة، أحب الزعفران والزعتر والزيتون، لا أحب الثوم ولا التمائم ولا الغزوات.. أنا رجل بسيط، بسيط أكثر مما تظنين.. لي حكمة واحدة في حياتي لا أتنازل عنها.. حكمة واحدة يا سيدتي، هي وحدها سر ما لا يعرفه أحد عني..

السيدة (تضحك كما الغواني):

– حكمة؟ أنت حكيم؟ هل يقف الحكماء هكذا كما الشحاذين أمام البيوت؟ أي حكيم أنت؟ للبيع أم للشراء؟ ساعدني على أصدف بعض ما تقول:

الرجل (يستل سيجارة من علبته – بهدوء – ينفث دخانها بلذة وخشوع ثم ينظر إلى سيدة القصر):

– أنا أكره الحكماء، أكره من ينصحني، أكره المواعظ، أنا إنسان طبيعي جداً، جداً، جداً.

السيدة (بسخرية فكهة ممتعة):

– وماذا تريد مني أيها الطبيعي جداً، جداً، جداً؟

الرجل (وهو يسحق سيجارته تحت عقب حذائه):

– أريدك أنت، أريدك تماماً، أريد فوراً.

السيدة تصرخ – دون إرادتها – وهي تحدق صوب قصرها:

– لواحظ، يا لواحظ، تعالي.. تعالي هنا.

الرجل (بشيء من الصرامة والعنف، لكن بصوت يشبه الهمس):

– أريدك أنت.. تماماً.. أريدك فوراً.

الوصيفة (وهي تقترب من السيدة):

– هل تأمر سيدتي بشيء؟

الرجل (في القوت نفسه وبسخرية جميلة)

– هل تأمر سيدتي بشيء؟

السيدة (وهي تنظر مرة ثانية إلى الرجل، نظرة لها ألف معنى):

– كنت.. كنت أريد.. فنجان قهوة و.. بسرعة

الوصيفة (وهي تحدق إلى سيدتها.. ثم تنقل نظرها إلى الرجل المنكمش هناك على دكة الأسمنت):

– أجل سيدتي، القهوة ستأتي فوراً.

السيدة (بينما الرجل يترك لمسرح، تبحث عنه بعينيها وتسأل نفسها:

– أين ولي هذا الأحمق العجيب؟

السيدة (تتحرك عند الشرفة بقلق لا يناسب مقامها):

– أين ذهب هذا الرجل الأحمق؟

الرجل (دون أن يظهر على خشبة المسرح، صوته يأتي من بعيد):

– هل تأمر سيدتي بشيء؟

دخان سيجارته يأتي من حافة المسرح، يشير إلى مكانه، سيدة القصر تسترخي على كرسي من الخيزران، تنظر صوب الدخان من طرف العين، هناك عند منعطف الشارع قرب المصباح يقترب الرجل كما الأشباح، أسود يغطيه الضباب والدخان معاً..

السيدة (بينما الوصيفة تنظر):

– اذهبي يا لواحظ، أريد أن أبقى وحدي

الوصيفة (وهي تمط شفتيها علامة استغراب):

– أمرك سيديتي.. سأكون قريبة منك إذا كنت بحاجة إليّ.

الرجل يقترب من دكة الأسمنت تحت شرفة القصر، يحدق إلى السيدة، نظرة تطول، تشعر بها سيدة القصر، لكنها لا تلتفت إليه.

السيدة (كمن تكلم نفسها ودون أن تنظر إلى الرجل):

– قلت إنك تريديني، وفوراً. كما تقول، هل ترى أنني رخصية إلى هذا الحد؟

الرجل لا ينطق بشيء، يكتفي بالنظر إليها، ثم (يهرش) شعر رأسه بطريقة فوضوية مضحكة.

السيدة (وهي تنهض من كرسيها الخيزران بشيء من الغضب):

– قلت لي إنك تريديني.. أنت قلت ذلك، كيف أفسر قولك "البارع" هذا؟

الرجل (وقد انغمس في حالة من التأهب المخلوط بالعدوانية):

– إذا كنت أستحقك.. أخبريني.. رأيت الكثير من الرجال وهم يدخلون.. شهوراً طويلة – وفي إجازاتي كلها – وأنا أراهم يدخلون..

السيدة:

– وما شأنك أنت؟ ما شأنك أنت بهم؟ ومن تكون لتسألني في حريتي وحياتي..؟

الرجل (وهو يرفع يديه عالياً كمن يستسلم في حرب):

– أنا لا أملك أي حق سيدتي، أنا أضعف مخلوقات الكرة الأرضية لكنني.. كما ترين، رجل مثلهم، أسأل نفسي، لماذا "هم" ولماذا "أنا"؟

السيدة (بشيء من الجزع الذي يختلط بالارتباك):

– لماذا هم.. ولماذا أنت؟ كيف تسمح لنفسك أن..

الرجل (يقاطعها بخشونة):

– أنا لا أسمح لنفسي.. عفواً، أنا أكتفي بما أرى، أنتم سألتمونني وأنا، أنا كما ترين يا سيدتي، أقول السبب، أنا واقف هنا كما الحمار، لا أطالب بشيء ولا أفرض أي شيء، أنا سعيد بحياتي، سعيد بهذا الجزء السخيف التعس من حياتي.. أنتم تسألون عن سبب وقوفي هنا.. أنتم تسألون.. وأنا.. أنا يا سيدتي أقول الجواب.. عفواً، أنتم القافلة يا مولاتي.. وأنا..

السيدة (بعنف وقح):

– كلب، كلب جميل في الثلاثين من العمر، يمشي وراء القوافل، ينبح، ينبح، وماذا تريد من نباحك هذا؟

الرجل (بمهارة عجيبة يحرك نفسه كما الكلاب):

– عو.. عو.. عو

السيدة (بغضب يشوبه الاقتراح على هدنة سلام):

– وماذا تريد؟ أريدك أن تحدد فوراً ما تريد؟ لا ترغمني على أن أغضب منك أكثر مما غضبت.. (الرجل ما زال ينبح ولكن بصوت خافت) كف عن نباحك الماجن هذا.. ألا تخجل من نفسك أبداً؟

الرجل (يفتح يديه بطريقة ساخرة):

– منذ قليل يا سيدتي أخبرتك بما أريد.. أنا.. أريدك.. أنت.. أريدك تماماً.. أريدك.. فوراً.. أريد أن تكوني لي، ليلة واحدة أو بعض ليلة.. و.. بس، ليلة واحدة.. فقط.

الرجل يستمر (وقد صارت كلماته أكثر قوة وأعمق نبرة):

– هل تفهمين لماذا أريدك فوراً؟

السيدة (تتحرك عند الشرفة، دون غضب كبير، ربما بخوف يشوبه الحرص والحذر معاً):

– ولماذا أنا؟

موسيقى تأخذ حقها في التأثير، تمتد على زمن قليل يطول دقيقة واحدة خلالها يتبادل الرجل والمرأة نظرات مقطوعة.. تأتي الوصيفة،

تطردها السيدة بإشارة من يدها، الخدم يتحركون في القصر، لا يظهر منهم غير الظلال.. صدى يأتي من زاوية في المسرح، يردد بصوت باهت خافت عذب جميل.. لماذا أنا؟ لماذا أنا؟ لماذا أنا؟ ..

السيدة (مرة ثانية، بصوت يرتعش بخليط من الشهوة والغضب):

– أخبرني، لماذا أنا؟ وصيفتي أجمل مني.. لماذا لا تفكر فيها.. مثلاً؟

الرجل (يضحك قليلاً، ثم يحرك يديه بطريقة ساخرة):

– مثلاً.. أنا أريدك أنت.. أنا لا أريد (مثلاً).. فهناك ألف (مثلاً) في المدينة..

السيدة (تنفث دخان سيجارتها وهي تمط شفتيها بشيء من العظمة):

– إنما يتعفن رأس السمكة أولاً..

ثم تنظر إلى (الرجل) بقسوة:

– هل ترى في الحصول على انتصاراً؟

صمت يطول، الرجل يفتح علبة سجائره، يرى أنها فارغة، السيدة تنظر إليه وهو يرمي علبة السجائر على الأرض.. تختفي السيدة لحظة ثم تعود إلى المشهد.. ترمي إليه علبة سجائر من النوع الممتاز.. الرجل – دون وعيه – يمسك بها ثم يقف – مندهشاً من نفسه – وهو ينظر إلى السيدة كمن يسأل نفسه: لماذا فعلت ذلك؟

الوصيفة (وهي تقترب من السيدة):

– هل تحتاج سيدتي إلى كبريت؟

السيدة تأخذ علبة الكبريت وتشير إلى وصيفتها أن تذهب، بينما الرجل ما زال ينقل النظر بين السيدة وعلبة سجائرها، وبينما هو أسفل المشهد يستل سيجارة في طريقها إلى فمه.

السيدة:

– كبريت؟

ودون أن تنتظر جواباً رمت إليه بعلبة كبريت تسقط قرب حذائه، الرجل يرفض أن يحني قامته ليأخذ الكبريت، ذلك انه يملك علبة في جيبه راح يسحبها بهدوء، ثم يأخذ يدخن وقد جلس هذه المرة على دكة الأسمنت دون أن ينظر إلى السيدة.

السيدة:

– ماذا تنتظر؟ليس من المعقول أن تبقى هنا إلى نهاية العمر ..

الرجل يمد أصابعه يرفع علبة الكبريت من الأرض، يفتحها، يشم رائحة الكبريت، ثم يغلقها ليضعها قربه على الدكة.. يطبطب بشيء من الحنان على علبة الكبريت.. ساخراً، ينظر إلى سيجارته الفاخرة، ثم إلى السيدة فوراً (دون أن ينطق بكلمة).

السيدة:

– خفف من غلواء الحقد الذي فيك، ألا ترى أن الإفراط في الحقد نوع من الكفر؟

الرجل يهز رأسه (بقليل من التهكم)، لكنه سوف يصغي إلى ما تقول السيدة باهتمام حقيقي، ما إن تنتهي سيجارة حتى يسحقها بحذائه ليأخذ أخرى.. الدخان يصبح حالة أساس من حالات المسرح (لا مانع أن يضاف بعض الضباب إلى جو المسرح ليشارك الدخان في رسم حالة القلق والتربص التي يشعر بها المشاهد بين السيدة والرجل)..

السيدة:

– لن أغضب منك إذا أخبرتني بما تريد مني، شرط أن تأتي بكلام معقول ولا تكرر ما سمعته منك قبل قليل..

الرجل (باسترخاء لا يوحي بالغضب مطلقاً، بمعنى آخر، إنه يقول الكلمات كما ينطق بها أي شخص نائم):

– هل تسمعين عويل بنات آوى؟

السيدة (تهز كتفيها استغراباً):

– لا..

الرجل:

– هل دخلت حقل كروم مزروع بالألغام؟

السيدة:

– ألغام؟ ولماذا أدخل مكاناً كهذا؟

الرجل:

– هل تشمين رائحة البارود وأنت هنا؟

السيدة (وهي توشك أن تصرخ):

– ما هذا الكلام الغريب.. ماذا دهاك يا رجل؟

الرجل:

– كم ليلة دهماء مرت عليك؟ وكم نهار أغبر زاحمك في الطريق؟

السيدة (تضحك بتهكم خفيف):

– ما هذا؟ ولماذا أنا، هناك آلاف النساء أكثر سعادة وأفضل حالاً مني.. لماذا لا تسألهن؟ يا رب.. أنا لا أصدق، أي حقد في هذا الرجل العجيب؟

الرجل (بهدوء أكبر، لكن بصوت تختلط فيه القوة والتبرم معاً):

– لماذا أنت؟ السبب بسيط يا سيدتي..

السيدة (تبتسم بالتهكم السابق نفسه):

– وهل هناك من سبب غير الحقد والحسد؟

الرجل (بالحالة نفسها التي كان عليها ودون أن يغضب):

– أجل يا مولاتي، ربما كان الحقد واحداً من أسبابي، لكنه جميعها ..

السيدة (وقد أخذها الغضب تنادي على وصيفتها):

– لواحظ (تصل الوصيفة بسرعة) اسمعي ما أقول.. اطردي هذا الكلب من هنا.. اطرديه بأي شكل.. لا أريد أن أراه أمام بيتي..

الرجل (يصرخ بأعلى ما في حنجرته من قوة):

– انتظري، انتظري لحظة واحدة قبل أن تهربي (بينما السيدة تقف لتسمع ما سيقول، يستمر الرجل في الكلام) هذا البيت الذي أنت فيه (يبطء من قوة صوته) هذا البيت الذي تنامين فيه.. كان بيتي أنا.. بيت أبي وجدي..

السيدة (بسخرية لاذعة جداً وهي تخطو خطوتين على الشرفة):

– بيتك أنت؟ وهل يملك شحاذ مثلك قصراً كهذا؟

الرجل (يبتسم ألماً):

– كان بيتي، وما يزال – بالنسبة لي – كذلك.. (يشير بإصبعه نحوها) كان بيتي، أجل، وسوف يعود كذلك..

السيدة (وهي تشير إلى وصيفتها أن تذهب، تنظر إلى الرجل نظرة ثاقبة تستفهم عن حقيقة ما يقال أمامها، ثم تسال بكثير من الدهشة والحيرة):

– من تكون أنت؟ لا بد أنك مجنون (ثم بسخرية أكبر) حقل كروم ملغوم، بنات آوى، ليلة دهماء ونهار أغبر.. طبعاً.. فعلاً.. حتماً أنت مجنون، والآن لتقول إن البيت بيتك.. لا أدري لماذا أخسر وقتي معك؟

(بينما السيدة تتحرك صوب باب الشرفة لتخرج)

الرجل:

– انتظري.. لن تخسري المزيد من الوقت، نحن خسرنا شبابنا لتنامي أنت على طنافس من حرير.. كنا نحلم بقليل من الشعير بينما سلة فضلاتك عند باب البيت – هنا يشير الرجل إلى مكان هناك – ما زالت مغطاة بقشور الموز والبرتقال وقناني النبيذ الأحمر الفاخر.. كنا دائماً هناك على هضبة كما الزمهرير، أو عند سهوب النار نغطي أجسادنا بالشظايا والبروق والصرير، وأنت (هنا) جذلى تتوشحين بالرجال والزيتون وأساور الذهب، تضحكين، تضحكين علينا، نحن مجرد شيء تنظرين إليه في التليفزيون، نتقهقر وفي الوقت نفسه (أنت) تتقدمين، نشتهي وجبة طعام فقيرة، وفي الوقت نفسه (أنت) وحدك من يقيم الولائم ويكتسح المشهد كله..

السيدة (تقاطعه بغضب):

– على كيفك، خفف الوطء يا رجل، من تكون أنت لتحكي مع أسيادك هكذا؟ ثم ما شأني أنا بحروبك وخسائرك وسهوب النار.. و.. كل هذا الكلام الفارغ الذي تقول؟ ما شأني أنا؟ هل كنت أنا من بعث بك إلى النار؟ هل تريد مني الذهاب إلى هناك حتى أحترق أو أموت من البرد؟

الرجل (باسترخاء عجيب، لكن بغضب عنيف ينام بين الكلمات حسب):

– لا أريد أن تكوني معنا في الجحيم، أنا جئت لأكشف المستور الذي تتوهمين أنني ساكت عليه..

السيدة (باستغراب وهي تبتسم):

– المستور؟ هل من شيء مستور بيننا؟!

الرجل (وهو يشير إلى القصر):

– البيت، هذا البيت الذي أنت فيه.

موسيقى تقطع الموقف، السيدة تنظر إلى قصرها ثم تنظر إلى الرجل، في تلك اللحظة سوف نسمع – أيضاً – صوت مؤذن يجيء من بعيد.. ينسجم صوت الموسيقى مع جرس المؤذن واختلاطهما يوحي بإحساس أن شيئاً ما ليس على ما يرام..

السيدة (ما زال أذان العشاء يملأ القاعة):

– بيتي؟ وماذا تريد من بيتي؟

الرجل (يدخن سيجارة ويشير إلى القصر):

– إنه بيتي أنا.. عشت فيه طفولتي وصباي ويجب أن يعود إلى ..

الرجل يستمر (برغم أن السيدة راحت تضحك وهي تردد: بيتك أنت، أنت؟ وهل يملك أمثالك قلعة كهذه؟):

– إنه بيت طفولتي، فيه احتسيت حليب أمي وذكرياتي وشجرة الرمان الجميلة، فيه فطموني وفيه (يصرخ بالسيدة بغية اساكتها) اسمعي، اسمعي، سأخبرك عن هذا البيت لتعرفي – حقاً – إنه بيتي..

الرجل (ينطق ما سيأتي من كلام بحنجرة تقترب من البكاء دون أن يبكي، بينما السيدة مأخوذة بما يقول، ذلك أنه على ما يبدو ينطق بالكثير من الحقائق عن هذا البيت.. بيتها):

– هناك سرداب مهجور في أسفل بيتي.. أعني كان مهجوراً أيام كنا نعيش فيه، وداخل السرداب باب تفضي إلى سرداب آخر أصغر منه.. كان جدي يخزن فيه الفلفل والبهارات والخمور، وكان (يضحك الرجل حزيناً) يحبس فيه جدتي إذا ما غضب منها، كمن مرة بكت جدتي؟ كم مرة صرخت بنا أن ننقذها من العقارب والصراصير والأشباح؟

الرجل يستمر (ينظر إلى السيدة وقد تغيرت نبرة صوته):

– ترى ماذا تخزنون به اليوم؟ أما زال السرداب على حاله؟ لا بد أنه تغير.. ثم، ثم، بالله عليك، كيف أصبحت شجرة الرمان؟ من يتسلقها بعدي؟ أم.. أم.. لا.. كلا، لا أريد أن أصدق أنكم قطعتموها ورميتم بها قارعة الطريق.. من يدري، ربما تغير العالم كله وأنا ما زلت أحن إلى هذا البيت.. بيتي، بيت طفولتي وصباي.

السيدة (وهي تهز جذعها سخرية):

– وماذا يريد سيادتكم الآن؟

ثم وهي توقف من اهتزازها:

– نعم، إنه البيت نفسه.. وماذا ينبغي أن أفعل؟ هل تريد أن تطردني (بسخرية لازعة وقحة) من (بيتك) الجميل هذا؟

الرجل (ينظر إلى السيدة، ثم يقول بصوت يقترب من الروح العسكرية المتسلطة القادرة):

– بالعكس، أنا أتمناك في بيتي، لا أريد غير أن تصدقي أمري، كنت أحلم بامرأة من نوعك أنت، أكبر مني، أحب المرأة التي تعرف أكثر.. مشكلتي أنني ضيعت كل شيء، الحرب أخذت كل وقتي ولم تمهلني حتى أصنع شيئاً في مستقبلي..

السيدة (بشغف مفاجئ):

– كلامك عجيب.. أنا لست غاضبة منك، لكن عليك أن تفهم وتصدق أن البيت لم يعد لك إطلاقاً.. لم يعد من نصيبك أبداً.. صحيح كان بيتكم ذات يوم، لكنه لم يعد كذلك الآن.

الرجل (مع ابتسامة غامضة توحي بهدنة بينهما):

– وكيف يا سيدتي يصبح البيت بيتي وقد سرقتني الحرب؟ هل يفكر من هو داخل النار كما يفكر من كان خارجها؟ الوقت الذي كنت فيه سيداً على زمني راح في خدمة هذا التراب المقدس.. كم سنة من عمري ذهبت في الحرب؟ كم سنة من عمرك سيدتي مضت وأنت تستثمرين كل شيء من أجل أن تكوني أفضل وأفضل.. بينما يأخذني الرصاص إلى..

السيدة (تقاطعه دون غضب كبير):

– وما ذنبي أنا؟ لماذا أنا؟ هناك آلاف الناس باعت وآلاف غيرهم يشترون، هذه (سنة) الطبيعة..

الرجل (يضحك هادئاً.. إنه يمتعض مما يسمع ولكنه يتكلم بهدوء):

– أجل، سنة الطبيعة، تأخذ منك لتعطي سواك.. يبدو أنني على خطأ كبير.. خطأ أكبر مني آلاف المرات..

السيدة (بلغة انتصار):

– هل اقتنعت؟ الحمد لله..

الرجل ينتفض ملسوعاً على حين غفلة، يصرخ دون أن ينظر صوب السيدة:

– الحرب أخذت مني سنوات شبابي، يكفي ما خسرت، يكفي ما خسرت، لا أريد أن أخسر شبابي والبيت معاً.. كلا.. كل شيء إلا ذكرياتي وطفولتي..

السيدة (وقد صعقتها الكلمات الأخيرة للرجل):

– ماذا تعني؟

ثم بصوت أعلى:

– ماذا تعني بالله عليك؟!

الرجل (بشموخ متفاجئ):

– سأحارب من جديد، سأحارب مرة ثانية، وثالثة، سأحارب هذه المرة من أجل (بيتي) مهما كلفني الثمن.. مهما كلفني الوقت..

السيدة (باستخفاف):

– وماذا ستفعل مثلاً؟

الرجل (يخفف من اضطرابه ويدخن سيجارة):

– الحرب مجموعة من خطط وأفكار، الحرب يا سيدتي تحتاج إلى ذكاء وصبر، صبر حقيقي وذكاء حقيقي، وهذه المرة لن أستعجل

النصر.. لن أستعجل النصر.. سأفكر أكثر مما فكرت طوال أعوامي التي انقطعت خلفي سدى..

السيدة (تأخدها حالة من الإيمان بما يقول):

– وهل ستقتلني مثلاً؟

الرجل (بهدوء جميل مؤثر):

– كلا سيدتي، في الحرب لا نقتل النساء، إننا نفكر فقط في إعادة الحق إلى أهله، إعادة الحق من مغتصبيه، وهذا البيت هو الحق الوحيد الذي أريد، بل وأعطيك الحق في البقاء فيه، وهذا كرم أكبر مما تظنين.. هل يفعلها غيري؟

السيدة (وقد أعياها ما سمعت.. تنظر إلى الرجل بإحساس جديد مختلف):

– وماذا ستفعل إذا لم أترك البيت لك؟؟

الرجل (بصوت عميق، صوت فيه سحر خفي يأتي من خلف حنجرة حزينة جريحة ملتهبة بالماضي):

– لا أريدك أن تتركيه، لا أريدك أن تتركي البيت، إنه يكفينا معاً.. إنه أكبر بيوت المدينة كلها.. ثم.. ثم إنني – والله – أريدك فعلاً، أريد تماماً.. أريدك فوراً..

السيدة (وهي تنظر إلى الرجل نظرة ذات معنى خفي لذيذ):

– كم هو عمرك؟

الرجل (يضحك مستغرباً):

– وما أهمية عمري؟ هذا البيت الذي تسكنين فيه منذ عشرة أعوام، باعوه أهلي وأنا منغمس في الحرب.. باعوه – كما تعرفين حتماً – بسعر التراب.. وأرى أن البيع لم يكن شرعياً أبداً.

السيدة (وهي ما زالت تنظر إلى بإعجاب ممزوج بشيء من الرغبة):

– لم يكن شرعياً؟ كيف؟

الرجل (يشعر بنظراتها العاشقة):

– الحرب لها قوانينها، قد نشتري فيها ما لا يباع في أيام السلم.. وهذا البيت بالنسبة لي خارج قانون الحرب.. بل خارج القوانين كلها.. إنه جزء من حياتي لن أتمكن.. لن أستطيع يا سيدتي فصله أبداً..

السيدة (دون وعي منها، وربما بوعي عظيم، ترمي مفتاح القصر إلى الرجل) وهي تبتسم بشكل ساحر مملوء بالرغبة:

– ادخل..

الرجل ينظر إليها بفرح كبير:

– قولها مرة ثانية..

السيدة (بإلحاح شبقي عارم):

– ادخل..

موسيقى من نوع يقترب من الصخب – موسيقى توحي بما يشبه اقتراب كارثة – بينما الرجل يحني قامته، يرفع المفتاح الساقط على الأرض.. ثم ينظر إلى السيدة ويقترب من البيت.. صدى كلمة (ادخل) يتكرر بصوت موسيقى غامر.. الرجل يضع المفتاح في الباب الخشبي الكبير.. ينسدل الستار ببطء، بينما الموسيقى تخفت و.. ببطء أيضاً.

11 كانون أول 1993

المؤلف يستميح (الجميع) عذراً، راجياً عدم إخراج هذا العمل أو الاستفادة منه مسرحياً أو تليفزيونياً أو إذاعياً أو سوى ذلك إلا بموافقة (خطية) منه، مع المحبة.

جمهورية العوانس

خشبة المسرح ظلام دامس، يستمر أكثر من نصف دقيقة – هذا مهم بالنسبة لهاجس العمل – ثم نرى شمعة قربها امرأة تولع بعدها شمعة ثانية تلتصق بها امرأة ثانية، ثم، ثلاث شمعات مرة واحدة لثلاث نساء، ثم أربع شموع أخرى، وهكذا، حتى تصبح تسع شموع وتسع نساء.

المسرح أصبح منيراً بفعل بروجيكتور خفيف هو – بالنسبة للمشاهد – مجموع الشموع التسع المضاءة فوق الخشبة، الوجوه جميعها – وعلى امتداد الفعل المسرحي – لا تنظر إلى مكان أو إلى شيء بعينه بل نجدها مبهورة مرة وبعيدة مرة وتائهة مرة أخرى، ليس من السهل أن يمسكها المشاهد أو يحدد مسارها النفسي.

شخوص المسرحية

العانس 1/ إنسانة طبيعية، منطقية، أو هكذا تبدو.

العانس 2/ مرتبكة دائماً، خائفة من شيء ما.

العانس 3/ ليلى 25 سنة، حالمة، تائهة النظر.

العانس 4/ متسلطة، تأمر بقية العوانس دون حق.

العانس 5/ صوتها جميل، تغني في حالات اليأس وتأزم المشاعر.

العانس 6/ سوسن/ من أهل البصرة، مرعوبة مرة وحزينة دائماً.

العانس 7/ متشائمة، من عائلة فيها شهداء.

العانس 8/ لا مبالية، لا تكترث بشيء، أو هكذا توحي للعوانس.

الرجل/ وسيم، أعرج، هارب من سجن ما.

الوقت: أي وقت.

الزمان: هذا الزمان.

المكان: أي مكان من العراق.

تتحرك النساء حركة اعتباطية، توحي بحالة من الضياع، صمت، لا أحد ينطق بكلمة، موسيقى ناعسة مرتبكة حزينة تعطي انطباعاً أن هناك (فاجعة) من نوع ما..

العانس (1) تقترب من إحدى العوانس، تضع رأسها على كتفها، لا ضرورة لتحديد مسار الحركة، إذ يتكرر الحال مع بقية العوانس. فترة لا تزيد على دقيقة واحدة، ثم تختفي العوانس كلهن مرة واحدة خلف ستار أبيض شفاف يظهرن خلفه وهن يثرثرن بكلام غير مفهوم، كلام يأخذ شكل موسيقى مرتبكة لكنها جميلة، إحداهن تصرخ من خلف الستار، ثم تظهر – فوراً – أمام الجمهور:

– يكفي، هذا يكفي، المشكلة هي أننا جميعنا في مشكلة.

تخرج العانس (7) تحمل شمعة وتردد:

– كثر الشهداء وبقية الرجال ذهبوا إلى المعركة.

صوت عانس يأتي من بعيد:

– جئنا في وقت لا يشبه الوقت.

العانس (9) تضحك:

– من قال إنها مشكلة؟ من قال إن الزواج مهم إلى هذا الحد؟

العانس (3) – قطاري الجميل ما زال ينتظر، والرجال في طريقهم إلى المسرح لا يستقر على حال واحد، هناك ما يشبه الضباب، أو ما هو أقرب إلى السحب الماطرة التي تمشي من جهة إلى جهة، نسمع طرقاً على الباب من جهة ما، العوانس يقفن عن الحركة، يبتسمن بغموض فاحش.

العانس (5) تصغي بطريقة مألوفة (تضع أذنها صوب الطرق) وتسأل:

– هذه أول مرة تطرق الباب – هكذا – منذ زمن بعيد، ترى من الطارق؟

العانس (8):

– طارق؟ هل كان اسمه طارق؟

الحيرة مرسومة على الوجوه جميعها، لا أحد يفتح الباب، الطرق – هادئاً منغماً – يستمر، العانس (2) بخجل: – افتح الباب؟ هل تسمحن لي بفتح الباب؟

العانس (8) – أتسمحين لي أنا بفتح الباب؟ ربما عاد خطيبي من هناك.

لا جواب من العوانس، لا إشارة ولا نظرة من أية واحدة، العانس (2) تجلس على الأرض تردد بهلع:

– لا بد من فتح الباب، هناك من يطرق.

بينما العانس (8) تهمس مع نفسها:

– لا أظنه سيعود بهذه السرعة.

العوانس – بصوت واحد – يطلقن أغنية هادئة موجعة، أغنية تحكي خراباً وشوقاً وضياعاً وانتظاراً من نوع ما – هذا مو انصاف منك، غيبتك هلكد تطول – والطرق يستمر بإيقاع لا يخدش المشاهد مع طول فترة الطرق على الباب (هنا لا بد من وسيلة تمنح المشاهد صبراً على طرق قد يطول أكثر مما يحتمل المسرح).

العانس (4) وهي المتسلطة كما يبدو عليها، تأمر:

– افتحن الباب، لم يطرق الباب هكذا منذ عصور.

صمت ممزوج بالهلع والترقب، النسوة يقفن في صف واحد مرتبك في استقامته، ثم يجلسن القرفصاء على هيئة صياد أو حصان يتأهب لسباق.. العانس (4) تكرر:

– افتحن الباب، هذا يكفي.

العوانس الثماني يقفزن بحركة واحدة، يذهبن إلى حيث تطرق الباب ثم، بصوت واحد خافت مبحوح يصرخن:

– رجل؟ إنه رجل!

يدخل الرجل بين هالة من وجد هيام واستفسار وإنكار وترقب وسيماً به عرج خفيف في ساقه اليمنى، خائف، ينظر خلفه كمن جاء هارباً من شيء ما..

العانس (5) وهي تبتعد، ما زالت تغني:

– هذا مو إنصاف منك، غيبتك هلكد تطول.

العوانس – كل واحدة مع شمعتها المضاءة – يبتسمن بانكسار وخجل بعضهن يقرص الخدود خفية، ثم يقتربن من الرجل على شكل نصف دائرة مفتوحة..

العانس (3):

– أنا اسمي ليلى، ليلى، عمري 25 سنة، فات قطاري الجميل وما زلت صغيرة.

العانس (7):

– رجل، إنه رجل حقيقي.

العانس (8):

– أنا بلقيس، اسمي بلقيس، مخطوبة من شهيد كان يحبني جداً.

العانس (6):

– أنا سوسن، كنت أعمل في البصرة، قصفونا في ليلة..

العانس (4) بصوت قاطع يأمر:

– عيب يا بنات، هذا البيت له حرمته، وهذا الرجل لا نعرفه حتى نخبره جميع أسرارنا.

المسرح يأخذ حالة من إظلام خفيف، ضوء غامر على وجه العانس (8) وهي تمشط شعرها وتقول:

– ثلاث سنوات، أسمع الأخبار، اليوم لا شأن لي بشيء، أغلقت التليفزيون وأحرقت الجرائد، ثلاث سنوات تكفي.

ضوء خافت على وجه العانس (2):

– يا رب، انقذني من خوفي، أريد أن أقول شيئاً مهماً.

المسرح يطلق الأغنية نفسها في المشهد السابق، والعوانس يتحركن حركة متشابهة وهن مقرفصات على الأرض، شمالاً وشرقاً، على إيقاع حزين موجع ويرددن خارج محور الأغنية – كما الدراويش – كلمة واحدة بأنغام مختلفة:

– لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

المسرح هادئ، الرجل الوسيم الأعرج يدخن سيجارة، يمسك ساقه العرجاء، بينما السيجارة ما زالت بين شفتيه، يكرر:

– غداً، غداً، كل يوم أسمعها..

يرفع السيجارة ويستمر:

– كل يوم أسمعها، حتى صارت حياتي غداً، غداً، غداً.

العوانس ينهضن من نومهن دفعة واحدة، العانس (1) تبتسم وتقول:
– غداً، هو يوم أجمل.

العانس (2):

– غداً.. ما معنى ذلك؟

العانس (3):

– إنه شيء نسيته تماماً، قطاري الجميل فات وأنا ما زلت صغيرة.

الرجل ينفث دخان سيجارته:

– غداً، صار حياتي.

العانس (4):

– غداً أنا لم أقرر ذلك بعد.

العانس (5) تغني بصوت عذب:

– وغداً تأتلق الجنة أنهاراً وظلاً، وغداً ننسى فلا نأسى على ماض تولى..

العانس (6):

– في البصرة كان (غداً) معجزة نسمعها ولا نراها.

الرجل يبتسم بمرارة:

– غداً، بدايايَ.

العانس (7):

– الشهداء يأتون غداً، هكذا أخبروني.

العانس (8) – خطيبي أجمل الشهداء، غداً أراه وبعد غد يراني.

العانس (9):

– اليوم، أو غداً، أو بعد سنة، لا يهم، أنا لا أحب الرجال منذ طفولتي.

الرجل يصرخ:

– يكفي، ما هذا البيت الذي أنا فيه؟ سجن آخر كتب إليه أم قاعة مجانين؟

العانس (8):

– أيها العزيز التائه، من أين أتيت؟

الرجل يقترب منها، ربما كان سعيداً بجمالها – العانس 8 أجملهن تماماً – وما أن يصل مكانها حتى يضحك هامساً:

– جئتكم هارباً من سجني، ربما من نفسي، من ولعي بما كنت أحب أنا لا أدري كيف أتيت ولماذا وقع اختياري هنا؟

يخفت الضوء تدريجياً، ثم ينحصر على وجه العانس (7):

– هل نهضت من بين الشهداء؟ أم جئت إلينا عن طريق القضاة؟ الضوء يتنقل بطيئاً على وجه الرجل:

– القضاة أمروني بالصمت، الشهداء رفضوني، وأنتن لا أفهم حقاً لماذا أنتن هنا؟

ما هذا المكان الذي أنا فيه؟

يتكرر صدى الكلام، مختلفاً قليلاً عما جاء على لسان الرجل، ويأتي – هكذا – على شكل صدى يتكسر:

– الشهداء أمروني، الصمت لي والكلام لهم، القضاة رفضوني، لماذا أنتن هنا، أنا لا أفهم أي شيء عن أي شيء..

العانس (3):

– فات قطاري الجميل وأنا ما زلت صغيرة.

حركة بشرية بطيئة، مع أغنية قصيرة عن حالة لا غضب فيها، تشير إلى رغبة مكبوتة في أجساد النساء، الحركة تأخذ شكلاً دائرياً قد يتغير وفق مزاج (المخرج) ورؤيته إلى النص وإلى حالة المسرح معاً.

العانس (1) تحلم، يأتي الحلم شكلاً من أشكال الفعل المسرحي مباشرة دون قطع، وبالملابس نفسها إلا ثوب العرس (هي والرجل الوسيم في ليلة عرس، تلبس ثياب عروس تخفي إحساساً بالخجل سوف يثير الشفقة فوراً، يستمر الحلم حتى تقطعه العانس المتسلطة عليهن)..

العانس (4) على حين غفلة..

– ماذا جرى يا مدام؟

العانس (5) تغني وهي تنظر إلى الرجل عن بعد:

– أحبك ليش ما أدري، ما أدري.

ثم بصوت منهك لكنه عذب جداً:

– أحبك هكذا، أنا أحبك هكذا، أهواك كما أنت، وأجمل ما أهوى فيك الأخطاء الحلوة والحماقات الذكية.

العانس (4) تصرخ:

– إذا لم يخرج هذا الرجل فوراً، سوف يصاب المترل بالجنون!

ثم تبتسم – هي نفسها – وتقول:

– لا أريدك أن تخرج، أنت جميل حقاً، ابق هنا، معنا.

الرجل يبتسم وهو يردد:

– من سجن إلى سجن، لا فرق بين ما هربت منه وما جئت إليه، لا فرق، كلها سجون، كلها سجون، حتى أحلامي صارت بعض سجني.

المسرح مزحوم بالزنزانات، هناك صراخ خفيف يأتي من زاوية في المسرح، الرجل ينقل نفسه من مكان إلى مكان في حالة من الحيرة والاستغراب، ثم يردد:

– سجون، كلها سجون، جئت هارباً أنقذ نفسي من سياط سجني.

العانس (8) تقاطعه:

– ماذا دهاك؟ أية بلوى جئت بها؟ أية بلوى أنت؟

الرجل (مستمراً في كلامه غير مبال بما سمع):

– ماذا رأيت؟ كل واحدة منكن (يشير بإصبعه السبابة إلى النساء) صارت سجاني، تحكمني، تأخذني من عنقي إلى الجحيم مرة وإلى الفردوس مرة، أنا العازب الوحيد في العالم ..

يدور حول نفسه بما يشبه الرقص، بينما العانس (4) المتسلطة تردد وهي بعيدة عن الرجل:

– كذاب، أنت كذاب نحن لا نفكر في أعرج كذاب مثلك.

العانس (3) وهي تقترب من الرجل دون النظر إليه: – أنا ليلى، اسمى ليل، عمري 25 سنة، لم أصبح عانساً بعد، قلبي هو العانس، قطاري الجميل رحل عني وما زلت صغيرة.

العانس (6) تبتسم كمن تبكي:

– قصفونا كل يوم، وكل يوم نقول غداً يتركوننا.. هل تفهم كيف يصبح الرصاص والصواريخ والقنابل أليفة كما القطط؟ هل تفهم؟

الرجل يقول دون أي انفعال، لكن بعمق:

– في الجبهة لم نعد نفرق بين الرصاص والأصدقاء، كلهم يأتون في وقت واحد، كلهم يشربون الشاي معنا ثم يحرقون المكان.

العانس (1) تسأل بفرح غامر:

– شاي؟

العانس (8) تسأل:

– هل شرب حبيبي الشاي قبل أن يمضي إلى هناك؟

العانس (9):

– أنا لا أحب الشاي ولا الرجال.

العانس (3) تسخر:

– بل كلامها معاً..

العانس (5) بصوتها الجميل:

– خدري الجاي خدري، عيوني المن أخدره؟ وتستمر مع الأغنية بعيداً عن الجمهور، صدى خفيف يبقى بعض الوقت..

العانس (7) تقول بهلع لا يناسب الموقف:

– لكن الشهداء لا يشربون الشاي، أنا أدري أنا الشاي لا يناسب الشهداء..

الجو العام فوق خشبة المسرح لا يوحي بمعقولية الأشياء، ينبغي إعطاء الممثل فرصة أن يأخذ نصيبه من العملية (الإخراجية)، وذلك يعني بالضرورة تخفيف الرقابة عليه وعدم ربطه بنمط مألوف من التمثيل.

الرجل ينتفض على حين غفلة:

– لا أحد يفهم قولي، في الجبهة ما كنا ندرك الفرق بين الأصدقاء والرصاص، كلهم يأتون بسرعة ويذهبون بسرعة.. الرصاص كثير لكنه يتناثر في كل مكان، والأصدقاء كذلك.

العانس (2):

– أنا أخاف الأصدقاء.

العانس (6):

– قصفونا في الليل، قصفونا في الظهيرة، قصفونا في الصباح، قصفونا ونحن نحلم، قصفونا في الفراش، في الحمام، وفي وقت الصلاة.. قصفونا ونحن تحت القصف، والغريب أننا لم نمت بفعل الصواريخ، لم نمت بفعل الرصاص..

العانس (3):

– إننا نموت من شدة الحب.

العانس (7) تقترب من الرجل وهو يوشك أن يترك المكان حزيناً:

– إلى أين؟ نحن لا يفارقنا سوى الشهداء، أين تريد الذهاب في هذه الساعة؟ لم نشبع منك بعد.. تعال.. تعال.

العانس (5) تغني:

– وين رايح وين؟

العانس (9) بصوت حاقد:

– غبية، غبية فعلاً، لا أدري كيف تحب المرأة رجلاً تافهاً كهذا؟

العانس (8):

– خاتم الخطوبة ما زال معي، لا أريد أن يكون معي أكثر من خاتم واحد.

ثم تبدأ كل عانس تحكي مع نفسها، كلاماً لا يرتبط بمعنى أساسي، ثم يهبط الرجل على قدميه يتضرع أمامهن كمن يبكي:

– يا سيداتي، يا حبيباتي، ماذا جرى؟ دعوني أفهم الحقيقية، لا أريد أن أدخل السجن ثانية، شبعت من الهوان والانتظار.. ثم يقف على قدميه يتكلم ويسأل الواحدة تلو الأخرى:

– سأذهب، حسناً، سأذهب الآن، أليس هذا حلاً معقولاً؟

دعوني أعود إلى سجني القديم، إنه أرحم بكثير، أو، أو، أو اتركوني أفهم ما يدور في هذه الرؤوس العجيبة، هل سأفهم يوماً ما أنا فيه؟

يشير إلى رؤوسهن العجيبة:

– هل سأفهم يوماً ما أنا فيه؟

يشير إلى رؤوسهن، بينما العانس (4) تردد:

– دعوه يرحل، اتركوه يرحل.

ثم تقترب منه، وفجأة، تمسح جسدها بجسده كما القطط، تكرر بدلال غريزي مفضوح:

– دعوه يرحل.

تمد العانس (4) أصابعها حول رقبة الرجل، ثم تمسح جسمه من أعلى إلى أسفل وهي تكرر بفضائحية غريبة شبقة:

– دعوه يرحل، لا أريد أن أجن من أجل رجل.

ثم تهوي أرضاً مثل طائر جريح، وهي ما زالت تكرر العبارة نفسها، ينظر إليها الرجل ثم يهبط معها أرضاً، يلمس أصابع يديها، يبوس أصابعها بحرقة ولوعة وحزن كبير، ويقول: أي عذاب هذا؟ أي عذاب إنساني أرى.

ثم بهمس مسموع يقول:

– أنا خادمك المطيع يا مولاتي.

العانس (3):

– فات قطاري الجميل وما زلت صغيرة.

بقية العوانس ينظرن إلى المشهد بلهفة ممزوجة بالحسد، بينما الرجل – بدوره – يتطلع إليهن واحدة واحدة وقد أحس – الآن – حقيقة المأزق الذي أصبح فيه (إنه الرجل الوحيد بين مجموعة من العوانس وكل واحدة ترى فيه رجلها المرتقب).

العانس (5) تحلم "تأخذ الرجل إلى فراشها الطاشر وهو يتضرع أمامها كما فعل مع العانس (4)".

الرجل – في حلم العانس (5) يقول:

– أنا لك أنت، وحدك لي.

هواء قوي يعبث بالفراش (الحالم) يأتي مباشرة من خلف المسرح، فستانها يطير، بينما الرجل ما زال يردد:

– أنا لك أنت، وأنت لي أنا.

العانس (5) تستيقظ على مشهد الرجل مع العانس (4) فتصرخ دون وعي منها:

– خائن، كنت تقول إنك لي وحدي.

العانس (6):

– لا أحد لأحد.

العانس (5) تقترب من الرجل:

– أوه، يا إلهي، يا للرجال من قساة وكذابين.

حلم اليقظة ينتاب العوانس بحالات تأخذ شكل الواقع، والرجل مع كل حلم لكل عانس ينسجم وما تحلم به، في عموم المشاهد هناك منطق عجبائي يشبه السحر، وخشبة المسرح ضباب يلف العمل المسرحي برمته (ينبغي إعطاء المشاهد إحساساً بأنه خارج المألوف الذي نعيش).

العانس (1):

– الرجل، شتاء دافئ.

العانس (2):

– الرجل؟ عندما يأتي يعود لكنه هنا دائماً (تشير إلى منطقة القلب).

العانس (3):

– فات قطاري الجميل والرجل ما زال فيه.

العانس (4):

– الرجل، حصان جامح.

العانس (5):

– يتأخر أيام البرد ويأتي لاهثاً في الصيف، أنا أحب الرجل الشتاء.

العانس (6):

– الرجل هدف الرصاص.

العانس (7):

– الشهيد رجل.

العانس (8):

خطيبي كان رجلاً، ولهذا تأخر.

العانس (9):

– أنا لا أحب الرجال.

الرجل يضحك بهمس لا يكاد يسمع، ضحك هستيري هادئ مخنوق لا يخدش السمع، إنه الآن في حالة يريد منها اقناع أو ارضاء العوانس كلهن:

– أنا لكل واحدة منكن.

ينظر إلى العوانس وهو يردد الجملة نفسها عدة مرات:

– أنا لكل واحدة، أنت، وأنت، وأنت وأنت، هل ينفع هذا؟

العانس (2):

– بل أنت لي أنا..

ثم تردد بما يشبه الجنون، مع خوف ينسجم وارتباكها الجميل الناعس:

– أجل، أنت لي أنا... وحدي.

العانس (8):

– ولماذا لا يكون لي؟ خطيبي لن يعود، وأنا لن أنتظر العمر كله.

العانس (6):

– بل سوف تصبح لي (أمامه تماماً) نذهب إلى البصرة معاً، أنا وأنت والصواريخ.

ثم

تنتبه – فجأة – لتقول بفرح حزين:

– ألا تدري أنهم كفوا عن قصف البصرة؟

العانس (9):

– ألا تخجلن من أنفسكن؟ دعوه هو الذي يختار (كأنها بذلك تشير إلى نفسها) الرجل (ينظر إليها وإلى العانس 5 القريبة منه) يبتعد قليلاً عن الاثنين ثم بصوت فيه بحة شوق:

– أجمل ما في الكون. امرأة لا تستحي من الحقيقة.

العانس (5) تغني:

– كلبك صخر جلمود ماحن عليّ.

العانس (3):

– فات قطاري الجميل وأنا ما زلت صغيرة.

الرجل في حركة منسجمة مع كل عانس، مع كل كلمة يسمعها من هذه أو تلك، يدور حولهن أو العكس، ينتظر ويسمع ذاك الكلام الغريب الموجع، ثم فجأة يصرخ بقوة:

– يا إلهي، ما الذي جرى حقاً في هذه السنوات؟

العانس (7) مع نفسها، وهي تترك المسرح:

– لا شيء، قلت لا شيء، دعونا نسأل الشهداء، إنهم يعرفون القصة كلها.

الرجل – مستمراً في صراخه – وهو يجلس على أرض المسرح كمن يريد الصلاة:

– أنا حقاً أريد أن أفهم.

العانس (1):

– المعرفة ورطة!

ينهض الرجل، يقترب من وجوه العوانس، واحدة بعد أخرى، وفي كل اقتراب يسمع عبارة أو كلمة، وهو يدور كما الثور حول ساقية، يسمع، يهتز، يدور.

– الورطة معرفة.

العانس (3):

– فات قطاري وأنا صغيرة، فات قطاري الجميل.

العانس (4) بغنج ما عاد يناسبها:

– لا أوامر بعد اليوم، أنت آمري.

العانس (1):

– متى نذهب معاً؟

العانس (2):

– أنا ما زلت أخاف (غداً).

تمتد أصابع الرجل العشرة إلى العانس (2) ثم إلى العانس (8) ثم بحركة شاملة إلى بقية العوانس، يصبح في حلقة مغلقة معهن، يرفع يديه عالياً، يرقص بشكل حارق، رقصة من ذاك النوع البطيء الحزين الذي يأتي عادة بعد فاجعة كبرى – ربما يذكرنا هنا بشخص زوربا مثلاً – والعوانس بحركة أسطوانية، وعلى لحن يشبه ما يفعله الدراويش يرددن بصوت شبيه ببداية المسرحية:

– لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

الرجل ما زال يرقص.

العوانس يتركن المسرح واحدة بعد أخرى، بهدوء، ببطء، كما السلاحف، ليبقى الرجل – وحيداً – على الخشبة، وهو ما زال يرقص تلك الرقصة الكئيبة، إذ به ينتبه بعد لحظات بينما المسرح – على مهل وبطء أيضاً – يضاء رويداً رويداً ليصبح الضوء أقرب إلى شعاع الشمس، نافراً، طالعاً من الزوايا كلها، يملأ المسرح والقاعة معاً، الرجل يصرخ:

– لا أريد هذا الضوء التعس، لم أتعلم العيش في نور كهذا.. تمتد يد إحدى العوانس عالياً:

– الضوء هنا جريمة.

ثم تكرر العبارة نفسها ما إن تلتفت إلى الجمهور حتى نرى وجه العانس (3) التي تستمر في رفع يدها نحو السماء.

– الضوء جريمة.

تمتد يد عانس أخرى بالشكل نفسه وتقول:

– أريدك في الظلمة، تعلمت عليك في العتمة.

ثم تكرر العبارة نفسها، ما إن تصبح أمام الجمهور حتى نرى وجه العانس (6) وهي ما زالت على تلك الحال:

– لم نعرف الرجل إلا في الظلمة، هناك نعرفه أفضل.

تمتد يد عانس ثالثة – من خلف ستار أبيض – وتقول:

– في الظلمة نشعر أننا نساء.

ثم تظهر على خشبة المسرح وتكرر:

– نساء بمعنى الكلمة، الضوء جريمة.

الرجل – بينما الضوء يخفت – يبتسم لهن ويردد الكلام نفسه الذي تقوله كل عانس، يكرر كما الببغاء مع تغيير طفيف، ثم يهبط أرضاً ويهمس بصوت مبحوح:

– الضوء هنا جريمة.

تأتي بقية العوانس من زوايا مختلفة، كل واحدة تقول شيئاً لايسمع تختلط الأصوات ببعضها، الرجل يحتضن العوانس واحدة بعد أخرى، ثم تسيل (دماء) كثيرة على المسرح ويختلط الكلام بالهمس، بالضحكات، من هناك – العانس (9) – نسمعها تقول:

– الظلام ستر وعافية.

العانس (3) تقول:

– كنت أعرف أن قطاري الجميل سيأخذني ذات يوم.

الضوء ما زال يخفت.

يمتد فراش كبير، فراش عظيم، على نصف خشبة المسرح، يتلوث بالدم، بينما العوانس (النساء) يسقطن على الفراش الذي سيطويه الرجل وهو يردد مثل مجنون:

– ها أناذا أدخل سجني الأخير.. سجني الذي لا فرار منه.

هنا، سوف نسمع صوت أطفال – ولا نراهم – حيث يمتلئ المسرح بضجة أطفال ولدوا هذه الساعة.

الرجل لا يريد أن يسمع تلك الحناجر الطرية الصغيرة، يضع يديه على أذنيه ويهبط أرضاً وهو يردد:

– سجني الذي لا فرار منه، سجني الأخير الجميل.

العوانس يقتربن من الرجل، وفي دائرة كاملة تمتد كل واحدة منهن يدها، حيث يختفي هناك، بينما تختلط حنجرته مع همسن، لكننا سوف نسمعه من زاوية هنا أو من زاوية هناك وهو يقول:

– إنني أدخل سجني الكبير الأخير. سجني الذي لا فرار منه.

1993/3/17

ليلة السحلب

المنظر:

غرفة جلوس صغيرة في قطار، نافذة عريضة يرى المشاهد منها شريطاً من المناظر يتغير على امتداد وقت المسرحية، وأيضاً، هناك صوت محرك القطار الذي يأتي كما الصدى، خفيفاً منسجماً مع صوت الممثلين.. هناك حقيبة واحدة كبيرة على الرف الذي يجلس تحته الرجل.

الشخوص:

بشرى: امرأة في الثلاثين.

محسن: أكبر منها سنة واحدة.

رجل.

امرأة.

الوقت: عند غروب الشمس، وما بعد الغروب.

بشرى:– أنا خائفة من هذه السعادة يا محسن، خائفة منها، وخائفة عليها، أنا لا أكاد أصدق نفسي.

محسن يمسك يدها بين يديه:– أنا يا بشرى، لا أستطيع أن أصدق الليلة أن هناك من هم أسعد منا.. كلاهما ينظر من نافذة القطار، صف من أشجار اليوكالبتوس، ثم فراغ تظهر منه السحب، ثم غابة شاسعة من عباد الشمس، يبتسمان معاً.

بشرى:

– السعادة تأتي كما المطر.

محسن (يبتسم):– لكنها كما المستحيل أيضاً، إذا اختفت ليس من السهل أن نعثر عليها.

بشرى:– ربما تغرب قليلاً كهذه الشمس التي تختفي الآن، لكنها سوف تظهر في يوم آخر..

محسن: أشعر بما تقولين يا حبيبتي، كلامك أحبه فعلاً.

بشرى (وهي تداعب شعر محسن):

– أنا أحبك يا محسن، أنا لا أدري حقاً كيف يمكن أن أحبك أكثر مما أحبك الآن؟

محسن (يضحك):– اسمعي يا بشرى، مرة عاد رجل إلى بيته فجأة عاد غاضباً منفعلاً كمن اكتشف خيانة زوجته، وراح يصرخ: أيتها القذرة أنا أعرف كل شيء، نعم أنا أعرف كل شيء.. عندها قالت زوجته ببرود: حسناً، إذا كنت تعرف كل شيء حقاً هل يمكنك أن تخبرني كم هو ارتفاع جبل إيفرست؟

محسن (يضحك، لكن بشرى لا تشاركه الضحك):– ما بك يا بشرى؟ هل قلت كلاماً سيئاً؟

بشرى (بحزن مفاجئ، توشك أن تبكي):- كلا يا محسن، أنت آخر من يقول كلاماً سيئاً ..

محسن:- إذن ما بك يا بشرى؟ أخبريني.

بشرى (ترفع رأسها وتنظر إلى وجه محسن، تطول نظرتها ثم تقول):- قل لي يا محسن، أجبني بصراحة، ماذا ستفعل إذا ما انقلب العالم ذات يوم، مثلاً، ورأيتني زوجة إنسان آخر، و.. وأنت جالس أمامي، في قطار كهذا، ومعك امرأة تزوجتها بعدي؟ هه.. ماذا ستفعل؟

محسن يسكت، وهو يشبك أصابع يديه ويرتكز – برأسه – عليها، بشرى تضربه على أصابع يديه المتشابكة وهي تردد:

– لماذا تسكت؟ أرجوك أن تخبرني يا محسن، ماذا ستفعل إذا رأيتني..

محسن (يقاطعها):- ماذا دهاك يا حبيبتي؟ ما هذا الخيال الجامح؟

محسن (وهو يمسك بشرى من كتفيها بحنان):- اسمعي يا بشرى، أنت وحدك من أحب، أنت زوجة روحي وعقلي ولن أسمح لنفسي أن تكون هناك امرأة غيرك في حياتي.

بشرى (ترفع رأسها، إنها تبكي):- أنا أقول مثلاً يا محسن، مثلاً ماذا ستفعل؟ حاول أن تتخيل المنظر، أنت هنا وإلى جانبك امرأة أخرى غيري.. وأنا أسافر على نفس القطار الذي أنت فيه، ومعي رجل آخر

غيرك أنت، نجلس كلنا في مقصورة واحدة، أنا أنظر إليك وأتذكر أيامي معك، وأنت ستنظر إلى..

بشرى (تستدرك):- هل ستنظر إلى فعلاً أم ستخاف منها؟ هه / هل ستخاف منها يا محسن ولا تنظر أبداً إليّ؟

محسن (وهو يوشك أن يضحك):- ماذا تقولين يا بشرى؟ من أين تأتين بهذا الكلام الغريب؟

بشرى (وقد صارت أكثر انفعالاً):- لماذا لا تريد أن تفهمني يا محسن؟ أنا أقول مثلاً، ولا أريد منك غير جواب بسيط.

محسن (وهو يحاول أن يشاركها الحالة التي تفكر فيها):- حسناً يا بشرى، إذا رأيتك يوماً – كما تقولين – وأنت مع رجل آخر لا سمح الله..

بشرى (تقاطعه): وأنت أيضاً مع امرأة أخرى.

محسن (يستمر):- نعم، وأنا مع امرأة أخرى، عندها أترك زوجتي وأضرب زوجك على رأسه ونترل معاً – أنا وأنت – من القطار، ونهرب إلى حيث لا ندري.

بشرى (تغمرها الكآبة):- ولما تراك قلت (لا سمح الله) عندما أكون مع رجل آخر، ولم تقل لا سمح الله وأنت مع امرأة أخرى؟!

محسن (مستغرباً):- ماذا دهاك يا بشرى؟ حقاً ماذا بك فعلاً؟ أنا قلت لا سمح الله إذا ما رأيتك مع رجل آخر غيري، وسوف أقول لا سمح الله ألف مرة إذا ما كنت مع امرأة غيرك.. هل ينبغي يا عزيزتي أن أضبط كلامي بميزان وأنا أتحدث مع زوجتي؟

بشرى:- أي واحدة، أنا أم هي؟

محسن (يرفع رأسه إلى السماء):- يا رب، ساعدني على هذه المجنونة التي أحب.

بشرى (بحزن عميق):- أنت لا تحبني يا محسن، أنا الآن أشعر بأنك لا تحبني..

محسن (هلعاً):- يا سبحان الله، يا مولاتي، يا حبيبتي، يا أحب الناس، ماذا جرى في رأسك الليلة؟ لقد كنا قبل قليل نحسد أنفسنا على هذه السعادة التي نحن فيها.. فماذا تغير يا بشرى؟

بشرى:- أنا لا أصدق بأنك سوف تضرب الرجل الذي معي، ولا أصدق بأنك سوف تأخذني من بين يديه، ولا أصدق أبداً بأنك سوف تهجرها وتتركها في القطار، أنت تواسيني وتضحك من عقلي، تقول هذا الكلام لئلا أغضب منك.

محسن (لا يكاد يصدق ما يسمع):- بشرى، انظري إلى عيني يا بشرى.

ثم (وهو يهزها): بشرى، اسمعيني، أنا حقاً ما عدت أصدق ما أسمعه منك.

بشرى (تنظر إلى عينيه):- ولماذا لا تصدق ما تسمع؟ إذا كنت تحبني حقاً، كان ينبغي عليك أن ترفض حتى فكرة الزواج منها.

محسن (يصرخ، وهو يضحك في الوقت نفسه):- ممن أرفض الزواج يا بشرى؟ عمن تراك تتكلمين؟

بشرى:- انظر إلى نفسك يا محسن، إنك تصرخ في وجهي.

بشرى (تكرر، وهي تبكي):- إنك تصرخ في وجهي يا محسن.

محسن (ينتبه إلى نفسه قليلاً):- أنا آسف، أنا آسف حقاً يا حبيبتي لكن كلامك غير معقول يا بشرى، غير معقول أبداً.

فجأة تضحك بشرى، تضحك بقوة.

- محسن، يا محسن، يا حبيبي، أنا أضحك معك، كل ما قتله لك الآن كان مجرد لعبة، كنت أريد أن أسمع وأرى وأشعر بما تفكر وتشعر به.

محسن (يضحك ببلاهة):- أنا لا أصدق ما أسمع يا بشرى، والدموع؟ تلك الدموع التي رأيتها في عينيك ماذا كانت؟ معقول؟؟

محسن (وهو يمد أصابعه إلى خدها):- يا مجنونة، لقد أوشكت أن أصدقك فعلاً.

بشرى (تضحك وتسأل):- أوشكت أن تصدقني؟ بل قل أنك صدقت كل ما أقول، حرفاً حرفاً.

محسن (يبتسم):- أنت على حق. لقد صدقت كل كلمة (يسكت قليلاً ثم يمد أصبعه نحوها) تذكري بأنك لا تكذبين يا بشرى، وهذا ما جعلني أصدقك فوراً.

بشرى (بشيء من الهدوء والخوف):- لكن قل لي يا محسن، صحيح ماذا كنت ستفعل حقاً إذا رأيتني ذات سنة أو ذات يوم مع رجل آخر، وأكون أنا قد انفصلت عنك – لا سمح الله مليون مرة – لأي سبب من الأسباب؟

محسن (وقد امتزجت الدهشة على ملامحه بالاستغراب):- كلا، هذا يكفي، هذا يكفي يا بشرى، لا أريد أن أعود إلى هذا الخيال القاتل، يكفيني ما سمعت..

بشرى (بإصرار):- يا حبيبي، يا محسن، يا أحسن محسن في الدنيا، أنا أرجوك أن تفكر قليلاً قبل الجواب.. أنا حقاً أريد أن أعرف.

محسن (بإصرار أيضاً):- وأنا لا أريد أن أفكر، ولا أريد أن أعرف ولا أريد أن أدخل تحت هذه الخيمة الممزقة من خيالاتك الرهيبة.

بشرى (تنظر من نافذة القطار، لا تلتفت إلى محسن، تبدو عليها أمارات الغضب، ثم تقول وهي ما زالت تحدق خارج المكان):- أنت تريد حباً سهلاً بلا متاعب، حباً يأتي إليك دون أن ترهق نفسك بالذهاب إليه، هكذا أنت يا محسن منذ أن عرفتك حتى اليوم.. (ثم تنظر إليه) هكذا أنت دائماً، ودائماً على العكس مني..

محسن (يبتسم بحذر):- ما هذا، لعبة أخرى؟

بشرى (وهي تمد أصابعها في شعرها):- تلك كانت لعبة، نعم أنت بدأتها (بشرى تستمر بالكلام وهي تقلد صوت محسن) أيتها القذرة أنا أعرف كل شيء، عندها أجابت زوجته ببرود: إذا كنت تعرف كل شيء كما تقول، أخبرني كم هو ارتفاع قمة إيفرست؟

محسن (مستغرباً):- إنها مجرد نكتة يا بشرى، نكتة صغيرة عابرة نقطع الوقت بها، نتسلى، ألا يحق لنا أن نتسلى في هذا الطريق الممل؟

بشرى (بشيء من الغضب):- ممل؟ الطريق الذي نقطعه في هذا القطار ونحن معاً، ممل؟ هذا الطريق ممل يا محسن وأنا معك؟ أنا والله لا أصدق ما أسمع، والله العظيم لا أصدق ما أسمع.. (بشرى تهمس مع نفسها) ممل؟ معقولة ؟!

محسن (وقد انتبه إلى هذا الخطأ الجسيم):- بشرى، افهميني، أنت تعرفين حتماً بأنني لا أقصد هذا المعنى، أنا..

بشرى (تقاطعه فوراً):- أرجوك يا محسن، اسكت قليلاً، أنا أريد أن نسكت، أنا وأنت، دقيقة واحدة فقط، دقيقة واحدة أرجوك، رأسي يؤلمني..

محسن (يسكت فعلاً، وبعد نصف دقيقة ينظر إليها):- بشرى، أنا أحبك جداً، أنا أحبك يا بشرى، واحد منا مجنون، ربما أنت، وربما أنا.. (ثم، بعد أن تغيرت نبرة حنجرته) أنا أحبك يا بشرى، لكنني اليوم، هذا اليوم بالذات، لا أكاد أفهمك أبداً.. ساعديني على أن أفهم هذا الجنون..

بشرى (وقد اقتربت من حالة البكاء دون أن تبكي):- أتمنى أن يرجع الوقت إلى الوراء، أن يرجع بسرعة، أتمنى يا محسن أن تسمح من ذاكرتي هذه الكلمة الموجعة..

محسن (بصوت حزين):- يا بشرى، يا حبيبتي، أنت خير من يعرفني، أنت حبيبتي وتفهمين تماماً بأنني لا أراقب كلماتي، إنني أقول كل شيء كما يأتي على رأسي وذاكرتي، أنا لا أخطط ولا أرسم ولا أفكر كثيراً فيما أقول، الكلمات تأتي عفواً على جمجمتي.. يعني أنا أقول ما أشعر به ولا أصنع مكياجاً لكل حرف أنطق به.. أنا هكذا يا بشرى وأنت تعرفين.

بشرى (تضحك عن حزن واضح):- وتلك هي المصيبة يا محسن، نعم، أنت تقول ما تشعر به، وهذه أكبر المصائب، وما قلته عن هذه

الرحلة، وفي هذا القطار، أنا أصدقه فوراً، لأنني أعرف بأنك لا تتفوه إلى بما تشعر به.

محسن (وقد انتبه إلى الخطأ الكبير الذي وقع فيه):- لكنني لا أقصد مطلقاً، والله يا بشرى، أنا لا أقصد أبداً أن هذه الرحلة مملة.. والله والله، أنا لا أعني هذا الكلام على الإطلاق، لماذا أتعذب هكذا يا إلهي، وأنا أعرف تماماً ما أفكر فيه وما أشعر به؟

بشرى (بهدوء غاضب):- لكنك قلت ما تشعر به..

محسن (بعد أن بدأت أعصابه تفلت من إرادته):- أنت لا تريدين السعادة لنا يا بشرى، لا توجد امرأة في العالم تفعل وتسأل وتنقلب وتستاء من كل شيء كما تفعلين معي.. كلمة واحدة قلتها بسرعة وكان ينبغي أن تمر بسرعة، انظري إلى ما جرى، لقد انقلب الفرح الذي كنا فيه قبل قليل إلى مأساة، وأنا خائف، بل خائف جداً على هذا الحب العظيم الذي بيننا أن يموت فجأة ما دامت كل كلمة أقولها يكون حسابها عسيراً، بل عسيراً حد أنني أفقد أعصابي..

محسن (وهو يراها صامتة، يمر الوقت عليها بلا جواب):- قولي شيئاً يا بشرى، قولي أي شيء، هل تريدين أن نعود إلى بغداد؟ يبدو أن السفر لا يناسبك أبداً..

محسن (يمسك رأسه بكلتا يديه، وبشرى لا تريد أن تنطق أبداً):- سوف نترل في المحطة القادمة، ومنها نعود إلى بغداد، بدأت أصدق أن

السفر لا يناسبك يا بشرى.. نعم، سوف نعود، ولن أسافر معك بعد اليوم لن أسافر أبداً..

بشرى (كما في المرة الأولى، تضحك، فجأة تبدأ في الضحك، ثم تمسك رأس محسن بحب كبيرة):- يا حبيبي يا محسن، أنت والله تحبني فعلاً، كنت أريد أن أعرف المزيد عن هذا الحب.. أنا لا أريد حباً سهلاً وعابراً، أنا أريدك أنت إلى آخر العمر، أرجو أن تسامحني يا حبيبي، إنها مجرد لعبة، لا أريد منها غير اكتشاف (جبي) الذي لا أملك غيره.

محسن (بغضب حقيق هذه المرة):- لا، كلا، وألف كلا أنا لا أسمح لنفسي أن تمرحي وتسرحي بي كما ترغبين، إنك ترهقين أعصابي وتبصقين على هدوئي، بل، تكفرين بهذا الحب وترمين به إلى المزبلة.

محسن (يستمر بغضب يتصاعد دون إرادته):- سوف أنزل في المحطة المقبلة، سوف نعود إلى البيت، هناك أفضل، أفضل آلاف المرات من هذه اللعبة الحقيرة التي تلعبينها معي..

بشرى (بعد أن يسكت محسن):- أنت على حق، إنها لعبة سخيفة أنا أدري بأنها لعبة سخيفة، ولكنها من أحسن منا فعلته طوال حياتي.. نعم، إنها أحسن ما صنعته أنا طوال عمري.

محسن (مندهشاً، وهو يرفع رأسها إليها):- ما هو معنى كلامك هذا؟

بشرى (بعد صمت):– الحب، يا حبيبي، هو أن تحب، ولا شيء غير هذا.. وعندما نحب، ينبغي أن نستمر في الحب، ليست هناك مسافة بين الحب والحبيب إلا نبض القلب وهي أجمل المسافات.

محسن (بغضب لم يفارقه بعد):– نستمر هكذا؟ تنزعين أوردتي من جسمي، ونستمر؟ تضحكين على عقلي، ونستمر؟ ولماذا نستمر هكذا يا بشرى، ألا يمكن أن نحب ونعشق بهدوء، ألا يمكن أن نحيا بهدوء مثل بقية البشر؟

ثم مع نفسه، ولكن بصوت مسموع:– نستمر!

بشرى (تنظر إلى محسن نظرة ذات معنى مريب):– ماذا دهاك يا محسن؟ أراك تقول كلمات كبيرة لم أسمعها منك مطلقاً.. أنا أنزع أوردتك من جسمك؟ أنا أضحك عليك وعلى عقلي؟ أنا أفعل هذا يا محسن؟ أفعله معك أنت؟ معقول؟!

بشرى (وقد سكت محسن بلا جواب):– حسناً، أنا أوافق، سنعود إلى البيت، وسوف تكون هذه الرحلة (المملة كما تقول) آخر ما نفعله معاً..

محسن يبتسم وهو يرى بشرى تغطي وجهها بين يديها، ثم تتسع ابتسامته ويبدأ في الضحك وهو يكرر كلامها الذي كان يسمعه قبل قليل: – بشرى، يا بشرى يا حبيبتي، يا حبيبتي أنا وحدي، الحب هو أن

نحب، ولا شيء غير هذا، وعندما ينبغي أن ننهمر في الحب، ليست هناك مسافة بين...

محسن (يستدرك بخبث):- بين من يا بشرى؟ لقد نسيت...

بشرى تبتسم (ترفع رأسها وظل ابتسامة صغيرة على شفتيها، ثم تتسع ابتسامتها قليلاً):- بين الحب والحبيب إلا نبض القلب، وهي أجمل المسافات.

بشرى (وقد راحت تحدق إلى ملامح محسن):- يا حبيبي، أيها المجنون الجاهز.

محسن (يمسك أصابعها بين يديه):- يا حبيبتي.. يا أجمل مجانين الكرة الأرضية.

(صوت محرك القطار يقف في محطة ما، ثم يتحرك ثانية بعد قليل)...

بشرى (بهدوء وشاعرية مفعمة بالحب، بعد أن عاد القطار إلى السير):

- هل يمكن أن أسالك سؤالاً واحداً ما زال يحيرني يا محسن..؟

محسن (وهو يبتسم أمامها، ابتسامة خوف غريبة جداً):- سؤال واحد؟!

بشرى:- سؤال واحد يا محسن، شرط أن أسمع الجواب عليه فوراً..

محسن (باستسلام):- قولي.

بشرى:- أجبني بصراحة يا محسن، بصراحة مطلقة، ماذا كنت ستفعل حقاً إذا ما رأيتني زوجة رجل آخر وأنت جالس أمامي في قطار كهذا صحبة امرأة تزوجتها بعدي؟

صمت يستمر بينهما ما يزيد على دقيقة واحدة، كلاهما يحدق في وجه الثاني، ثم تقترب أيديهما وتتشابك في كتلة واحدة.

محسن:- لا أريد أن أفكر في يوم مشؤوم كهذا يا بشرى..

بشرى:- لكنني أفكر فيه رغماً عني، أفكر في هذا اليوم وأخاف منه أنني أخاف على كل لحظة حب تمر بيننا لئلا تعقبها كارثة..

في هذه اللحظة يطرق باب المقصورة، ثم سرعان ما يدخل رجل وامرأة يبتسمان لمحسن وبشرى..

الرجل (بابتسامة عريضة):- لقد صعدنا من المحطة، من هذه المحطة، فهل تسمحان لنا بالجلوس معكما، إنها - على أية حال - أرقام تذاكرنا، أنظر..

محسن (ببلاهة وارتباك ولكن دون أن يمد يده لينظر في تذاكر الرجل):- تفضل، تفضلي، المكان واسع.

الرجل يجلس قرب محسن، بينما تجلس المرأة قرب بشرى، عندها ينظر محسن غلى المرأة التي دخلت، وبشرى راحت تنظر إلى الرجل الذي

دخل تواً، ثم تبتعد نظرة كل واحد منهما لتلتقي نظرة محسن بنظرة بشرى.. يسود المكان إظلام تدريجي ولا يظهر على وجه بشرى ووجه محسن، ينهضان من مكانيهما، وكل واحد منهما – بشرى ومحسن – يحدق في وجه الثاني، يبتسمان، ثم تتسع ابتسامتهما، ثم يحتضن محسن جسد بشرى بين يديه وهو يردد:– يا حبيبتي يا حبيبتي.

بشرى (بصوت يأتي من بعيد، عميقاً كأنه يخرج من بحر):– هكذا سنفعل يا محسن، هكذا سنفعل أمامهما، وليكن بعدها ما يكون..

محسن (بصوت ضاحك):– أيتها الملعونة، أنا أعرف كل شيء، أنا الآن بدأت أعرف كل شيء..

بشرى (وهي تشاركه الضحك):– إذا كنت تعرف كل شيء كما تقول، أخبرني كم هو ارتفاع قمة إيفرست؟

* السحلب: خليط من السكر وجوز الهند والحليب والسمسم والفول السوداني، يشربه أهل مصر والسودان، وعندما يقال عن امرأة بأنها تشبه (السحلب) يكون المعنى أنها مزيج من الحلاوة والفتنة وانقلاب المزاج أيضاً.

الذي ينام مبكرا

تلال وسفوح، وعند العمق البعيد تظهر سلسلة جبال، بينما تتكدس على خشبة المسرح أجساد رجال بثياب عسكرية مهلهلة ممزقة، يتراكم عليها الرمل والغبار والدهون، سيبدو جلياً للمشاهد أن معركة طاحنة قد انتهت منذ وقت قصير، هناك بقايا دخان وبقايا قصف لكن الحال يبقى هكذا على خشبة المسرح حتى يتحرك أول جسد من ذاك الركام البشري الذي يثير الشفقة وربما الإحساس المرعب معاً، ومن يدري، ربما يثير الضحك أيضاً.

يجب أن نعلم – مسبقاً – أن الحوار بين أبطال هذه المسرحية لا حماسة فيه ولا خطابة كما قد يتوهم القارئ باعتبارهم جنوداً في حرب، بل ينطقون الكلمات بشكل أقرب إلى اللامبالاة وربما التهكم أحياناً.

الوقت: قبل شروق الشمس، ثم عند الشروق الأول.

المكان: ساحة حرب.

الشخوص: برغم أن الملامح تبدو متشابهة في مكان كهذا، لكننا سوف نشير إلى:

1- مهدي ياسر – مقاتل فيلسوف

2- المقاتل رقم 1 – محمود.

3- المقاتل رقم 2

4- المقاتل رقم 3

5- رياض بلغاريا.

6- حمدي.

مع عدد من البنات والرجال في لهو ما.

المقاتل رقم 1:

- قلت لكم دائماً، الذي ينام مبكراً سوف يستيقظ مبكراً.. لكنكم لا تسمعون النصائح، فها أنتم تغطون بالنوم كما العوانس.

المقاتل رقم 2: (وهو يتثاءب بقوة ويحرك يديه مثل غوريلا، ثم ينكش شعر رأسه بقسوة)

- هل انتهت الحرب؟!

يتحرك في مكانه حركة دائرية كما الأطفال:

- أخبروني، هل انتهت الحرب؟

ينهض المقاتل رقم 3 من بين الركام البشري وهو ينفض ملابسه العسكرية مما علق بها من رمال وأتربة وغبار.

المقاتل رقم 1 (وهو ينظر إلى الأفق البعيد):

- هناك حروب تنتهي في خمسة أيام وحروب تنتهي في خمسة أعوام.

ينهض المقاتل الثالث من بين الركام البشري، ينفض ثيابه بكسل، يمشي متعرجاً، ثم ينظر إلى السماء مرة وإلى رفاقه مرة.

المقاتل رقم 3:

– وهناك حروب لا تنتهي أبداً (يسأل بشيء من الحمال) هل استيقظ الفيلسوف؟ هل مات الفيلسوف؟ أخبروني بالله عليكم ماذا حل به؟ لا أريد أن أسمع خبراً سيئاً.. يكفي أن يكون (مهدي) بخير.

هناك (يد) ترتفع من بين بقية الأجساد التي كانت ملتصقة ببعضها يد واحدة تفتح أصابعها ثم تكتفي بسبابة تشير إلى فوق وصوت يقول:

– إنه بخير.. مهدي ياسر ما زال حياً.. ذلك يعني أنني لم أمت بعد.

المقاتل رقم 3 (يصرخ):

– انهض يا مهدي، انهض أيها الجميل.. كنت أعرف أن أمثالك أقوى من الموت..

يتحرك (مهدي ياسر) بشيء من الصعوبة، هناك جثة تنام على زنده الأيسر وجثة ثانية فوق قدميه، ما إن يتحرك حتى ترتطم الجثث على خشبة المسرح، ينظر مهدي إلى الجثة الأولى.

مهدي ياسر (بهمس مؤلم):

– رياض؟ رياض بلغاريا؟ (ثم ينظر إلى الجثة الثانية) حمدي؟ يا لهذا الحمدي العجيب الذي لا يشبع من النوم أبداً.

المقاتل رقم 1:

– الحمد لله، الأحياء أكثر من الموتى، هذا شيء جميل، أن يكون الأحياء أكثر من الموتى (وهو يشير إلى نفسه أولاً، ثم إلى بقية الشخوص) واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة..... خمسة.

مهدي ياسر (ببرود):

– خمسة؟ الأحياء خمسة؟! من هو الخامس يا محمود؟

المقاتل رقم 1:

– رياض بلغاريا.. إنه رياض، ذكرياتي معه ترفض أن يموت، أنا لن أبكيه ولن أرثيه، فقط، لا أريد، وسوف أرفض أن أصدق أن رياض يمكنه أن يخدعني ويموت.

أصوات موسيقى صاخبة، ورقص مع بعض الفتيات وأضواء من ذلك النوع الذي يتكسر ويختلط فيه الأحمر بالأزرق بالأصفر الذي لا يستقر فيه النظر على نقطة بعينها.. ديكور المسرح يتغير تماماً، رياض ومحمود في مكان سيوحي للمشاهد أنه في حانة في مدينة (صوفيا) عاصمة بلغاريا.. رياض يمسك كأسه ويرفعها عالياً.

رياض (وهو على جانب من السكر والترنح الخفيف):

– في صحة الحياة.. في صحة أشجار الكرز التي تفوح منها روائح البسكويت والنساء الجميلات (يصرخ كما الهنود الحمر وهو يضع أصابعه على فمه)، اهض يا محمود، اهض أيها الكسول، اهض أيها السيد المهذب.

محمود (وهو يبتسم في الحانة نفسها، يرفع كأسه تحية لصديقه رياض):

– في صحتك أيها الجميل الرابض في عرين القلب.. ألا ترى أنك قد سكرت قليلاً يا صديقي الأثير؟ لقد حان الوقت..

رياض (يقاطعه ضاحكاً وهو يلتفت صوب البنات وهن يرقصن على إيقاع صاخب):

– حان الوقت؟ حان لمن؟ وحان على من؟ أي وقت هذا الذي (حان) الآن؟

رياض (وهو يرقص على طريقة الزار المصري، يلتفت حول نقطة ما كمن يدور حول صخرة، ثم تطوحه الخمرة قرب حائط عريض وبينه وبين محمود اسعاف الموقف لئلا يسقط رياض أرضاً):

– هل تدري يا محمود، أن أصدقائي هناك في البصرة، في البصرة هناك، ماذا يطلقون على من أسماء؟

محمود (وهو يداري مشاعر صاحبه):

– ماذا يقولن عنك يا رياض؟

رياض (وما زالت الخمرة تغلبه على أمره):

– لقد جئت هذه المدينة ثلاث مرات يا محمود، وأحببتها ثلاث مرات يا محمود، وهذه هي المرة الرابعة، يعني الحب الرابع يا محمود، لهذا يسمونني (رياض بلغاريا) تخيل.. رياض بلغاريا، أنا العجين الدسم في موقد أمي.. أنا لحاء الشجر المغمس في جرة من الشمع.. (ينتبه رياض إلى نفسه فجأة).. يا إلهي، ماذا دهاني؟ هل تراني سكرت يا محمود، يا حبيبي محمود، هل تراني سكرت؟ أخبرني أرجوك، وحياة البصرة عليك أخبرني، هل أنا.. يا إلهي، الأرض تدور بي، الأرض تدور يا محمود.

(ويسقط رياض على أرض الحانة)..

هنا، يعود المنظر السابق، تلال وسفوح وسلسلة جبال عند العمق البعيد من خشبة المسرح و(محمود) بثيابه العسكرية المغبر، يقف في مكانه السابق.

محمود (وقد أخذ حالته الأولى):

– أجل، أنا لا أبكيه ولا أرثيه، لقد أحببته حقاً، كان أول إنسان يأخذني لرؤية العالم..

مهدي ياسر (وهو يقترب من محمود):

– هذه (الكومة) الجميلة من الذكريات دعها على (رف) الذاكرة.. استرح الآن يا محمود، في الحرب، أية حرب، ومهما كان حجم الربح الذي سيصبح من نصيبنا ذات يوم، لا بد من خسارة ما.. لابد أن نخسر.. الحرب، أية حرب في الكرة الأرضية، هي خسارة أولاً قبل أن تكون ربحاً.. كلمة (حرب) نفسها، ألا ترى كم هي غريبة ومغرية أيضاً؟ ثلاثة حروف.. ثلاثة حروف فقط، حاء، راء، باء، حرب، ويمكنها أن تكون بحر – مثلاً – وهي كما ترى الحروف نفسها التي نكتبها في (ربح) مع أنها الخسارة الكبرى..

محمود (وهو يبتسم بخفة):

– حرب.. بحر.. ربح.. وحبر.. و... وما برح أيضاً، انتظر وهناك (رحب).. وكلها كلمات لها أكثر من معنى..

مهدي ياسر:

– تخيل ذلك يا محمود، تخيل ماذا تفعل فينا كلمة عربية واحدة؟!

المقاتل رقم 2:

– عندما يكثر الفلاسفة في بلد ما تبدأ الحروب.

مهدي ياسر (يبتسم ويضع أصابعه الخمسة على فمه لئلا تظهر أسنانه):

– أجل، تبدأ الحروب عندما يزداد عدد الفلاسفة.. أول واجب في الحرب هو ذبح الماضي وشنق الذكاء وتحطيم العلوم.

المقاتل رقم 3:

– لهذا السبب أتسائل: متى يحين دورك يا مهدي؟ خائف عليك والله يا صديقي.

مهدي ياسر (باستغراب وتواضع):

– هل تراك تصدق أنني فيلسوف إلى هذا الحد حتى أستحق رصاصة منهم؟ أنا مثلكم ولا أختلف عن أي واحد منكم.

المقاتل رقم 1:

– صديقنا حمدي، هذا الذي مات أكثر من مرة، كان يقول: إن الفلسفة تأتي من الألم، ورياض بلغاريا يقول: إن كثرة الأخطاء تصنع الفلسفة.. ترى من نصدق منهم؟

مهدي ياسر (وهو يستلم دور الواعظ على حين غفلة):

– كلاهما على حق، الفيلسوف إنسان لا يريد أن يكون أسوأ الناس، ولا يريد أن يكون أحسنهم، إنه يكتفي بما يفكر فيه، إنه على أفضل معنى: إنسان يفهم أن الخسارة قدر، وأن المكان الذي نعيش فيه حالة أخرى من حالات القدر.

المقاتل رقم 2:

– أخبروني أيها الفلاسفة العظام، هل انتهت الحرب؟

مهدي ياسر (وهو ينظر إلى الأفق البعيد):

– الحرب لا تنتهي إلا إذا انتهت أسباب اندلاعها.

المقاتل رقم 2:

– وهل انتهت أسباب اندلاعها؟

المقاتل رقم 3 (يدخل في الحوار وهو جالس كما البلهاء):

– ما من حرب في الكون، مهما كانت سيئة، إلا وفيها شيء من الخير.. حلو!

مهدي ياسر (يبتسم):

– إنه ينطق بالصواب، هذا الكلام هو الفلسفة بعينها..

المقاتل محمود (يصرخ على حين غفلة):

– رياض، عيني عليك أيها المدلل في قلبي، أريد أن أتعلم على غيابك منذ اليوم (ثم يسكت برهة، وهو ينظر إلى رفاقه في السلاح، وإذا به يبتسم ويستمر في الكلام) إذاً، نعم، إذا انتهت الحرب قسأذهب معه ثانية إلى هناك، إلى بلغاريا، إنه يحب تلك المدينة الناعمة الصغيرة (ينظر

ثانية إلى رفاقه وهو يوشك أن يبكي) إنه يحب صوفيا، وأنا أيضاً سوف أحبها من أجله عينيه.

مهدي ياسر (يقترب من محمود دون أن يلتصق به):

– عندما تنتهي الحرب.. ستنتهي معها الأمنيات.. في الحرب نفكر في مشاريع كثيرة وأمنيات كثيرة، نريد أن نحققها بعد الحرب، وما إن تنتهي المعارك وندفن موتانا حتى ننسى كل شيء.

المقاتل رقم 3:

– أنا لا أريد نسيان ما جرى.. الذي جاء الحرب منذ يومها الأول حتى الآن لا يمكنه أن ينسى أبداً.. أنا هنا منذ خمسة أعوام وخمسة أشهر.. أنا هنا منذ أول شظية فكيف يمكن أن...

مهدي ياسر (ينطقها بيقين غامض وهو يقاطعه):

– وبرغم ذلك سوف تنسى.. الحياة أكبر وأطول مما ندري..

المقاتل رقم 2 (بسخرية هادئة):

– دعوها تنتهي أولاً يا جماعة، أنا شخصياً ما عدت أصدق أن الرصاص سيكف عن القتل ذات يوم.. دعوها تنتهي، لا أريد أن تسمع أمنياتكم وكلامكم الأحمق هذا..

(صوت انفجارات تأتي من بعيد، ثم تصبح أقرب، ثم أكثر قرباً)..

المقاتل محمود (يضحك بما يشبه الهستيريا):

– تنتهي؟؟ هذه الحرب من نوع آخر ولن تنتهي إطلاقاً.. أنا مؤمن أن ما نحن فيه ليس حرباً.. إنها أي شيء سوى أن تكون حرباً.. (ثم يحرك إصبعه السبابة كما المسدس) دي.. دي.. آي.. (ويمسك رأسه كمن أصيب بطلق ناري)..

مهدي ياسر (ينظر صوب المكان الذي تأتي منه أصوات الانفجارات):

– لا توجد حرب بلا نهاية.. الحياة ستنتهي ذات لحظة وتصبح الكرة الأرضية دونما بشر.. المهم...

القاتل رقم 3 (يقاطعه):

– المهم يا سيدي الفيلسوف أن تنتهي قبل أن يذوي شبابي.. أنا لم أتزوج بعد.. وهذا يعني كما تعلمون بأنني لم أذق حلاوة الحب بعد أنا.. أنا.. يا إلهي، هذا غير معقول، يبدو أنني تزوجت الحرب!!

(يضحك بشيء من الطرافة، ثم يستمر في الكلام):

– أجل، أنا تزوجت الحرب (ثم ينتبه) أخبروني بسرعة: هل الحرب ذكر أم أنثى؟

القاتل رقم 2 (يكلم نفسه بصوت مسموع):

– عندما يكثر الفلاسفة تبدأ الحروب.

محمود (بحركة عسكرية مألوفة):

– استعد (ويفعلها وحده) استرح (ويفعلها وحده أيضاً، ويتكرر هذا الفعل أكثر من مرة قبل أن يسقط على ركبتيه كمن يبكي) كم مرة نستعد للحرب، كم مرة استرحنا منها؟ وإلى متى يا ربي؟ إلى متى نستعد، مهدي ياسر (بهدوء جميل):

– ما من حرب على الكرة الأرضية مهما كانت سيئة إلا وفيها شيء من الفائدة..

المقاتل رقم 3 (بفرح غامر):

– أنا الذي قلت هذا.. ذلك يعني يا جماعة: أنني فيلسوف أيضاً.

يضحكون كما المومياءات، ضحك كاذب ملفق، كل واحد منهم يتحرك صوب زاوية من المسرح، ليس من شيء يربط أفعالهم أو حركاتهم، لا شيء معقول تماماً أو مفهوم تماماً، بل سنراهم – في هذا الجزء من المشهد العام – ينطقون كلاماً ليس لأحد بعينه، وربما في وقت واحد أو بين لحظة ولحظة،، وما سيأتي من حوار ليس بالضرورة أن يكون متسلسلاً – كما هو مكتوب أدناه – وإنما هي حالة من الهذيان الحزين، هذيان جماعي يعطي إحساساً بالخسارة والهلع وشظايا النفوس التي طال زمان الحرب عليها..

محمود:

– إذا ما انتهت الحرب.. من سيأخذني إلى بلغاريا إذا كان رياض قد سبقني إليها؟

المقاتل رقم 2 (بحركة تشبه الصلاة، يتلو مقطعاً من قصيدة للشاعر نزار قباني):

_ أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة.

والكتب القديمة..

أنعي لكم..

كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة

ومفردات العهر والهجاء والشتيمة

أنعي لكم، أنعي لكم..

نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة..

المقاتل رقم 3 (وهو يشير إلى ملابسه العسكرية):

– الدنيا كلها تعرفني من ثيابي، وتعرف ثيابي مني..

محمود:

– قلت له يا رياض، قلت له يا حمدي، عليكما أن تتناوبا إجازة الحرب، لكنها ضحكا مني، قلت لهما: واحد يبقى وواحد يأتي.. لكنهما ضحكا مني، ثم (ماتا) من الضحك أمامي.. (يشير إلى جثة رياض وحمدي) نعم، مات من الضحك والرصاص معاً..

مهدي ياسر (بغضب عارم لا يناسبه):

– يكفي، هذا يكفي، أنتم تنتحبون كما الأرامل.. ماذا دهاكم؟ الحروب تصنع الرجال الأقوياء..

محمود (يقاطعه ببلاهة كاذبة)..

– والرجال الأقوياء يصنعون الحروب..

(ضحك، وهسيس كلمات بلا معنى، ثم انفجار ضحكة هنا وتصفيق هناك)

المقاتل رقم 2:

– أتمنى أن أصنع حرباً على قياسي..

محمود (بينه وبين نفسه):

– حرب على مقياس بنطلونه..

المقاتل رقم 2 (يستمر ولا ينتبه إلى كلام محمود):

– حرباً أحدد وقتها وعدد المحاربين فيها، لا أريد أن تطول أكثر من شهر واحد، شهر واحد يكفي جداً.. شرط أن أنتصر فيها فوراً، أنتصر بلا شهداء، حرب جميلة بكلام جميل..

محمود (بخفة وطرافة):

– إذا كانت الحروب هكذا، كيف نحدد المنصور فيها؟ وكيف نكتشف المهزوم؟

المقاتل رقم 3 (يكرر الكلام نفسه):

– أجل، حرب جميلة بكلام جميل.. أو حرب جميلة في كرة القدم.. مثلاً!

أحدهم يصرخ:

– مثلاً.

المقاتل رقم 3:

– أو حرب جميلة في الملاكمة أو السباحة..

أحدهم يصرخ:

– مثلاً.

المقاتل رقم 3:

– أو حرب جميلة في.. في.. في (يحاول أن يتذكر دون جدوى).. في القصائد العمودية وعلى المنابر وأمام جمهور عمودي يكرر (أحسنت أعد).

أحدهم يصرخ:

– أحسنت، أعد.. بارك الله فيك.. مثلاً.

محمود (بهدوء مضحك):

– وهكذا تنتهي الحروب..

مهدي ياسر (وهو يمشي كما النائم المغناطيسي):

– بل، هكذا، تبدأ، الحروب.

الجميع ينظرون إلى مهدي ياسر بكثير من الدهشة، بينما المقاتل رقم 3 ما زال يكلم نفسه بصوت مسموع:

المقاتل رقم 3:

– هكذا تنتهي الحروب..

(يعود المقاتل رقم 3 إلى مكانه الأول في المشهد الأول من المسرحية، حيث اجتمع الركام البشري في البداية)..

محمود (بالهدوء السابق نفسه):

– من يدري كيف تبدأ الحروب وكيف تنتهي؟ من يدري لماذا تندلع الحروب ولماذا تنتهي؟

(يعود محمود إلى مكانه الأول من المشهد الأول كما فعل المقاتل رقم 3)..

المقاتل رقم 2:

– عندما تنتهي الحرب، أتزوج.. عندما أتزوج، ستنتهي الحرب حتماً ربما أتزوج حرباً.. من يدري ؟!

(يعود المقاتل رقم 2 إلى مكانه الأول من المشهد الأول فوق الركام البشري)

مهدي ياسر (وهو يمشي مثل رجل مسحور إلى مكانه الأول من المشهد الأول):

– وما الفائدة؟ كلها كلمات..كلمات دون معنى (ثم ينظر إلى المشاهدين) الحرب وحدها ليست كلمات..

(يرمي نفسه على الركام البشري كما كان الحال في بداية المسرحية، وهنا نسمع صوت المقاتل رقم 1 (محمود) يتكرر ثانية)..

محمود:

– قلت لكم دائماً، الذي ينام مبكراً، سوف يستيقظ مبكراً.. لكنكم أبداً، أبداً لا تسمعون النصائح.

1994/4/14

هكذا أفضل يا مروان

الوقت: شتاء عند منتصف الليل.

المكان: صالة في بيت بغدادي بسيط، هناك تليفزيون في مكان بارز، نافذة تقول إن الدنيا تمطر وثمة رعود خفيفة بين حين وآخر، آية قرآنية في جانب من البيت قد يتمكن المشاهد من قراءة "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

خشبة المسرح مغطاة بالسجاد، هناك مدفأة في زاوية من الديكور ما زالت نارها تلتهب، مصباح صغير أحمر يكسب المكان حالة النوم، سكون إلا ما يسمعه المشاهد من رعود ومطر لا ينقطع طوال فترة العرض، لا حاجة بنا إلى شرح ما يحتاجه مكان كهذا من أريكة أو أكثر وبقية لوازم صالة نستقبل فيها الضيوف.

الشخوص:

مروان كاظم، رجل في الثامنة والثلاثين.

السيد عوني، رجل في الخمسين.

زينب زوجة مروان. في الرابعة والثلاثين.

(طرق على الباب، يأتي ممزوجاً مع الرعد والمطر، المسرح خال من البشر طوال نصف دقيقة، هي الفترة التي يستمر فيها الطرق على الباب... ثم يظهر رجل في الخمسين من العمر، يقترب من الباب وهو

يحاول أن يرتدي معطفاً على كتفيه، وقبل أن يفتح الباب يسأل بصوت عال):

– من؟

(الطرق ما زال مستمراً، يكرر الرجل سؤاله بصوت أعلى):

– من الذي يطرق الباب؟

صوت:

– أرجوك أن تفتح الباب يا سيد عوني..

السيد عوني يفتح الباب:

– من أنت؟

(الغريب يخطو نحو الداخل، مبللاً، خائفاً، مضطرباً):

– ألا تعرفني يا سيد عوني؟

(السيد عوني ينظر إلى الغريب):

– لا أدري تماماً أين رأيتك، لكن وجهك قريب إلى ذاكرتي، تفضل تفضل ..

(الغريب يخلع حذائيه عند الباب، ثم يتردد في الجلوس على الأريكة بسبب ملابسه المبللة.. السيد عوني يكرر):

– تفضل اجلس، اجلس.

(الغريب يفرك يديه بسبب البرد، ثم ينظر إلى السيد عوني:

– أنا آسف حقاً، آسف والله، لا اعرف من أهل المحلة سواك أنت آسف على إزعاجك في هذا الوقت، أدري بأنني على خطأ فيما فعلت، لكن، بصراحة، الأمر لم يكن طوع إرادتي..

(السيد عوني يقدم كوباً من الماء إلى الغريب وهو يسأل):

– لكنني لم أتشرف بمعرفتك حتى الآن؟

(الغريب يشرب الماء ثم يحدق في وجه السيد عوني ويقول):

– أنا.. مروان، مروان كاظم.

(وعندما أحس مروان أن السيد عوني لم يرفه بعد، راح يقول):

– أنا مروان كاظم، المذيع.

(ثم وهو يشير بإصبعه إلى مكان التليفزيون):

– ألم ترني في التليفزيون؟ أنا مروان كاظم ..

(عندها ابتسم السيد عوني، ابتسامة سرعان ما اختفت وهو يسأل):

– وهل أنت من أبناء هذه المحلة؟.. كنت أعتقد أن أمثالك، عفواً، أريد القول إنها محلة بسيطة لا تناسب رجلاً معروفاً مثلك..

مروان كاظم:

– بيتي في أول الزقاق، البيت الثالث قرب المدرسة.

السيد عوني:

– آ.. نعم تذكرت، كنت أسمعهم يقولون (هذا بيت المذيع)..

ثم أكمل مرتبكاً:

– سآتيك بالمدفأة، أنت تشعر بالبرد حتماً.. لكن، لكنك يا سيد مروان لم تخبرني عما جاء بك الآن إلى بيتي؟

(فترة صمت كان فيها مروان كاظم ينظر إلى المكان، ثم إلى السيد عوني الذي دخل إلى بيته فجأة، واضح من ملامحه بأنه خائف مما سوف يقول)..

مروان:

– أنا، أنا يا سيد عوني، بصراحة، أريدك أن تساعدني.. نعم، أريدك الليلة أن تساعدني، لقد سمعت الكثير عن كرمك وطيبة أخلاقك.. إنهم يقولون عنك الكثير.. وهذا، وهذا وحده يا سيد عوني ما جعلني أختار بيتك حتى أختبئ فيه..

السيد عوني (وقد أخذته المفاجأة):

– ماذا تقول يا سيد مروان؟.. تختبئ عندي؟ هنا؟ في هذا البيت؟ هل أنت هارب من الشرطة؟..

مروان:

– لقد قتلت زوجتي..

(صمت، صوت المطر يجعل الحالة أكثر رعباً.. ثم، بعد قليل يتكلم مروان):

– قتلتها، كنت في طريقي لتسليم نفسي، لكنني فكرت قليلاً بأشياء كثيرة أحتاجها، فغيرت رأيي.. ثم، جئت إليك.. لا أريد سوى ثلاثة أيام فقط يا سيد عوني.. ثلاثة أيام، ولن أنسى لك هذا الجميل طوال عمري.. أنا، أنا لست مجرماً، لا أريدك أن تظن بي الظنون.. لم يكن ما جرى طوع إرادتي أبداً..

السيد عوني:

– لا بد أنك تهذي يا سيد مروان.. ألا تدري أن هذا البيت الصغير مملوء بأولادي وبناتي وزوجتي؟ وإذا كنت اسكت أنا عليك، كيف تراني أضمن سكوت عائلتي كلها؟ نحن تسعة يا سيد مروان.. تسعة.

مروان كمن يتلعثم:

– أنا، أنا رجل معروف يا سيد عوني، ولا أعتقد أن هناك من يكرهني، إنها ثلاثة أيام وينتهي بعدها كل شيء.. أرجوك أن تحميني..

(بعد قليل، مروان يقترب من السيد عوني):

– يا سيد عوني، هناك أمور كثيرة على انجازها قبل أن أسلم نفسي، صدقني، لم أكن أنوي قتلها أبداً، هي.. نعم أرغمتني، بل وأعطتني السكين بنفسها كي أقتلها..

السيد عوني (مندهشاً ومضطرباً):

– أي كلام أسمع منك؟ أعوذ بالله مما أسمع، ماذا تقول؟ ثم، لماذا أنا من تختار بيته دون بقية البيوت؟ نحن عائلة كبيرة. وهذا يعنى أفواها كثيرة.. هل تفهم؟ اعذرني، يا سيد مروان، ابحث عن بيت آخر أو افعل ما شئت، لكن عليك أن تغادر البيت فوراً قبل أن تصحو زوجتي أو أحد من أولادي.

(نهض مروان واقترب من السيد عوني وهو يقول):

– لا أصدق أنك تطردني، لا أصدق أن تفعلها يا سيد عوني وتطردني.. أنا منذ طفولتي أسمع ...

السيد عوني يقاطعه بقوله:

– ما تسمعه شيء وما نحن فيه الآن شيء آخر.. هل يرضيك أن يأخذوني إلى السجن بدلاً عنك؟.. حسناً، أنا موافق، لكن ما رأيك أنت؟ ثم ما مصير عائلتي بعدي..؟

(مروان يحني رأسه خجلاً وهو في طريقه إلى الباب.. مد يده إلى حذائيه ثم أراد أن يفتح الباب، لكنه يسمع السيد عوني يقول):

– بماذا تنفعك الأيام الثلاثة؟.. ألا، ألا يمكن إنجاز ما تريد في يوم واحد؟ ربما أستطيع أن أساعدك في إنجاز بعضها إذا كان ذلك ممكناً..

مروان ينظر إلى السيد عوني كمن يريد أن يبتسم:

– هل أفهم من كلامك أنك وافقت على بقائي يوماً واحداً؟

السيد عوني وهو يمسك رأسه:

– لا أدري حقاً ما أقول، لا أدري، لكنني سأمنع العائلة كلها من الخروج من أجلك أنت..

(ثم ينظر إليه مليا ويسأله):

– لماذا قتلتها؟ آسف.. لكنك قلت لي بأنها أعطتك السكين بنفسها.. هل، هل تراك كنت تمزح؟..

مروان:

– الأمر يا سيدي العزيز ليس بهذه البساطة، إنها قصة لا أكاد أصدقها أنا بنفسي، أي والله لا أكاد أصدقها، فكيف يصدقها الناس؟..

السيد عوني:

– أخبرني بما جرى، أنا حين أستيقظ لا أتمكن من النوم ثانية إلا بصعوبة، إلا إذا كان الأمر عسيراً عليك..

مروان (وقد عاد إلى الأريكة ثانية ينظر إلى سقف الغرفة، ثم إلى وجه السيد عوني) وهو يقول:

– تزوجتها منذ عشرة أعوام، كانت رائعة في كل شيء، كانت تستقبلني عند عودتي بحب عظيم (يضحك) كم مرة أخبرتني أن نساء المحلة يحسدونها على قسمتها، أن أكون أنا مروان كاظم زوجها.. كانت تختار ملابسي وتسهر على رعايتي كما الأطفال.. نعم، كنت طفلها المدلل..

السيد عوني:

– رجل مثلك يستحق هذا، التليفزيون له سحر كبير على الناس.. أنا الذي أمامك معجب بفريد شوقي لأنني أراه على الشاشة بين يوم وآخر..

مروان (يستمر كأنه لم يسمع ما قاله السيد عوني):

– مرت ثلاث سنوات ونحن على أحسن حال.. ثلاث سنوات من النعيم يا سيد عوني، فجأة لا أدري ماذا جرى في عقلها العجيب.. بدأت تسألني عن المعجبات بي، هل يتصلن بي تليفونياً؟ هل خرجت مع واحدة منهن؟ أسئلة غريبة بعضها ما كنت أصدق أابداً.. لقد قالت لي ذات مساء لماذا تلبس البدلة السوداء، أنت أنيق فيها أكثر مما ينبغي لمذيع؟.. وأرغمتني على خلع البدلة ورمت أمامي بدلة زرقاء لا أحبها.. قالت هذه تناسبك الليلة، قلت لها: يا حبيبتي الليلة سأظهر في التليفزيون ثلاث مرات وليس مرة واحدة، ماذا دهاك؟ قلت لها: اليوم مناسبة وطنية وفي هذه المناسبات علينا أن نظهر بصورة أفضل.. لكنها ..

يقاطعه السيد عوني:

– لكنها أصرت.. هكذا النساء، زوجتي أيضاً تفعل معي ما فعلته زوجتك، رغم أنني – كما ترى – لست معروفاً ولست شاباً.. ما رأيك أن نشرب الشاي؟..

مروان:

– لا، أجوك، أريدك أن تصغى إلى حكايتي، إنها اعتذاري الوحيد منك على ما تسببت فيه من ازعاج..

السيد عوني:

– يا رجل، انتهينا من هذا الأمر، دعني أسمع الحكاية..

مروان:

– يومها لا أدري أنا نفسي ماذا دهاني؟ شعرت فوراً أن شخصيتي قد انتهكت.. نعم، انتهكت تماماً، وعند باب البيت قررت فجأة أن أعود وارتدي البدلة السوداء وليكن بعدها ما يكون..

(السيد عوني يرفع قبضة يده كأنه يسانده فيما فعل، بينما يستمر مروان في عرض حكايته):

– لكنها ما إن رأتني أخلع البدلة الزرقاء حتى هاج البحر وماج، لم أعد أعرف تلك المرأة أبداً، إنها ليست زينب التي أعرفها، ليست هذه زوجتي أبداً... لقد راحت تصرخ في وجهي.. كلمات قذرة لم أسمعها طوال حياتي، ولم أجد أمامي من جواب على زينب غير أن أضربها لأول مرة بعد ثلاث سنوات من زواج سعيد..

"يمكن إحياء وإغناء وتطير المشاهد بين مروان وزوجته زينب عبر عملية العودة إلى الماضي – فلاش باك – وبذلك نضمن حركة مسرحية أفضل وأكثر حيوية"..

مروان يهز رأسه وهو يتذكر ما جرى:

– نعم، ضربتها بقسوة وبقوة، ولم أصدق أنها سقطت.. راحت في إغماءة مخيفة، كانت زينب قد سقطت بقوة لم أحسب حسابها مطلقاً.. كنت أريد أن أتصل بالتليفزيون حتى أعتذر عن تأخري ساعة واحدة،

لكنهم سبقوني، ورن الهاتف في بيتي.. كان المدير نفسه يقول لي: إن عليك أن تأتي حالاً.. وكرر الكلام خمس مرات...

فترة صمت قصيرة يستمر بعدها مروان قائلاً:

– رميت بضع قطرات الماء على وجه زينب، ثم قربت أنفها من بعض العطور، رأيتها تتحرك، نعم.. وحين شعرت بها تتحرك، أسرعت إلى عملي في التليفزيون وأنا في أسوأ حالاتي، لكني كنت قد ذهبت إلى عملي بالبدلة السوداء ..

(هنا يضحك مروان وهو مازال يتكلم):

– رجعت إلى البيت في آخر الليل، كنت يومها المذيع الخفر، فماذا رأيت في بيتي؟

السيد عوني (مندهشاً متلهفاً):

– ماذا رأيت؟

مروان يبتسم بمرارة:

– كانت زوجتي العاقلة قد كسرت جهاز التليفزيون وتركت لي ورقة كتبت فيها: أيها السافل، كنت أعلم بأنك تخونني، لا بد أنها تحب بدلتك السوداء، لن أعود إليك أبداً ..

يكرر مع نفسه:

– لن أعود إليك.. ثم، ثم مرت علينا أيام وأيام دون أن تعود زينب إلى بيتها ودون أن أذهب لمصالحتها في بيت أهلها.. كنت غاضباً عليها رغم أنني اشتريت تليفزيوناً آخر، وأنا حزين على الجهاز الذي كسرته زينب فقد كان هدية أعتز بها جداً..

مروان يلتفت حوله كمن يبحث عن شيء.

فيسأله السيد عوني:

– ماذا تريد؟

مروان:

– أريد أن أشرب..

وبينما يتحرك السيد عوني صوب زاوية من الصالة، يستمر مروان في سرد حكايته:

– بعد نصف عام.. وفي عيد ميلادي الذي كنت أنا نفسي قد نسيته تماماً (السيد يقدم له الماء) شكراً لك يا سيد عوني، اتعبتك معي (يشرب).. بعد نص عام، تخيل يا سيد عوني، وصلتني منها هدية ثمينة جداً، ساعة مطلية بالذهب، كتبت معها رسالة قصيرة، حلوة، رسالة حلوة قالت فيها (أنت لا تحبني، لقد أخذتك النساء مني)

يبتسم وهو يتذكر ما جرى:

– يومها ذهبت إلى بيت أهلها وعدت بها إلى البيت، وبدأنا شهر عسل جديد، شهر عسل في غاية الجمال.. ذهبنا إلى مصايف الشمال، لم نترك شبراً من غابات شقلاوة، ولا قطرة ماء من شلالات بيخال إلا ومضينا إليها، كانت رائعة، نعم،.. كانت زينب رائعة كما عرفتها أول مرة ..

السيد عوني (بهدوء):

– واضح أن حبكما من النوع النادر.. حب وغيرة وخصام وزعل و.. مروان يستمر:

– عدنا إلى بيتنا بعد عشرين يوماً من الحب كانت بحق أجمل أيام عمري وأجمل أيامها، لكنها بعد شهر واحد من رحلة الشمال، شهر واحد فقط، عادت تسأل وتشك وتظن بي الظنون رغم أنني تركت البدلة السوداء ولم أعد أرتديها إلا معها.. لا أدري أي خراب حل في عقلها ومن ترى كان يحرضها ضدي؟ قلت لنفسي: ربما كان التليفون هو السبب وراء تلك الغيرة والشكوك.. ربما يتصل بها بعض الوشاة والناقمين أو الحساد الذين يتربصون بي ويخبرونها بأكاذيب يشفعونها بأدلة صغيرة عابرة..

السيد عوني (بما يشبه الهمس):

– لا حول ولا قوة إلا بالله..

مروان وهو يزداد اضطراباً:

– لهذا رفعت التليفون من البيت، رفعته رغم حاجتي إليه، كسرت التليفون وقلت سنهدأ.. لكن اليوم الذي كسرت فيه التليفون كان واحداً من أسوأ أيام زواجي، فقد رأيت زينب في هذا الفعل جريمة لا يمكن أن تغفرها أبداً، بل هي أفضل وأبرز دليل على خياناتي التي أريد أن أكتم عليها..

السيد عوني (بهمس عال):

– سبحان الله، ساعدك الله

مروان يبتسم بمرارة:

– نعم، ساعدني الله يا سيد عوني على ما جرى بعد ذلك،.. لقد جن جنونها بصورة لا تطاق، لا تطاق أبداً، لقد احترق بي فراشي، لم أعد أستطيع النوم في بيتي، بدأت أدمن حبوب الفاليوم، حتى أتمكن من الصبر على جنونها وشكوكها وصراخها الذي لا ينقطع طوال الوقت الذي أمضيه في بيتي..، ثم أدمنت الخمرة، ليلة بعد أخرى، أنا الذي لم أقربها طوال حياتي.. كنت أريد منها أن تكف عن هذا (النقيق) الذي خرب أعصابي وشرايين رأسي، لكنها على العكس، أضرمت النار في بقية أيامنا ولياليا وأشعلت الدنيا ساعة بعد ساعة.. كانت الخمرة اللعينة قد أخذت البقية الباقية من وقتي، ولم أعد أشترك مع زوجتي في فراش واحد، كنت أهرب منها وتهرب مني، لا أحد نما يفكر في الثاني، لا أحد يريد الثاني، أصبحنا غرباء تماماً ونحن ما زلنا تحت سقف واحد.. غرباء فعلاً، وقبل

شهور قليلة صارت تقول كلاماً لا يقال، نعم، كلاماً لا يقال يا سيد عويني.. أخذت تسخر مني ومن رجولتي..

مروان (يضرب على فخديه كمن يولول) وهو مستمر في الكلام:

– صارت تضحك مني وتستخف بي، ويوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، راحت الكلمات على لسانها تكبر وتكبر.. صارت شتائم ليس في الدنيا كلها ما هو أقذر منها، قلت لها: سأقتلك ذات يوم يا زينب.. لكنها كانت تضحك وتسخر من كلامي.. سمعتها تقول ذات ليلة: بأنني عاجز تماماً، وأنني انتهيت، وأن هذا الجل الذي تراه الناس على شاشة التليفزيون ليس إلا خرقة مبلل.. (ثم بهدوء) خرقة مبللة..

مروان يهتاج وهو مستمر في الكلام:

– مرة يا سيد عويني، تركتني أنام في حديقة البيت، فوجئت بعد عودتي من التليفزيون بأنها غيرت (كيلون) الباب، تصور كيلون الباب (يضحك) ولم أتمكن من فتحها بمفتاحي القديم.. طرقت عليها الباب بكل ما أملك من عنف وغضب، لكنها لم تكن في البيت، غيرت القفل والمفتاح وراحت إلى بيت أهلها تسخر وتضحك على هذا الكلب الذي أصبحته بين ليلة وضحاها..

السيد عويني (منكسراً ومهدئاً):

– محشوم يا مروان، أنت أحسن الناس..

مروان (يبتسم بمرارة):

– أحسن الناس؟ لقد أصبحت أضحوكة الجيران في تلك الليلة.. وعندما رجعت زينب بعد يومين إلى البيت، كان هذا قبل أسبوع واحد، سألتها: ماذا دهاك يا زينب؟ لماذا تفعلين بي كل هذا؟ لقد صارت حياتنا لا تطاق يا زينب... لكنها صارت تسكت وتعلمت إهمالي واحتقاري ونسياني تماماً.. كانت تفتح الراديو تخفي به صوتي لئلا تسمع ما أقول.. ويوم كسرت الراديو وهشمته على جدار البيت قرب رأسها لم تأبه ولم تلتفت إلى غضبي، بل، لم تتحرك من مكانها.. كانت تضحك برعونة على كل فعل أفعله في البيت.. تضحك، تضحك وفجأة، صار على رجل مثلي أن يختار، إما أن أقتلها أو أقتل نفسي..

السيد عوني وقد نفذ صبره على ما يسمع:

– كان عليك أن تطلقها وتنتهي..

مروان، بغضب وغليان، لكن بصوت هادئ:

– كلا، مع زينب لا ينفع الطلاق، ذلك أنها قبل يومين، نعم قبل يومين فقط رأيتها تغازل رجلاً لم أره من قبل، مر بسيارته قرب البيت، ربما كان معلماً في المدرسة التي بجانب بيتي.. رأيتها تبتسم أمامه بعد أن ابتسم لها.. رمى بسيارته شامخاً مغروراً أمام عيني، فجئت إليها وسألتها عمن يكون هذا الكلب.. فأجابت بأنها لا تعرفه وأنها لم تره أبداً إلا هذا

اليوم.. ثم تركتني وراحت وهي تقول: ثم ما شأنك أنت؟ كانت تصرخ: ما شأنك أنت؟

مروان (كمن يكلم نفسه):

– ما شأني أنا؟ كيف؟

السيد عوني:

– أعوذ بالله..

مروان (وقد أخذته نشوة الغضب):

– لم أذهب ليلتها إلى علمي، كيف يمكنني الظهور أمام الناس وأنا مهدم تماماً؟ كنت أتمزق من هذا المصير الذي وصلت إليه.. لم أنم حتى الفجر، كنت بين دقيقة وأخرى أوقظها من فراشها ونبدأ الصراخ معاً.. لم تبق من كلمة بذيئة في الأرض إلا ونطقنا بها.. ثم، ثم جاءت النهاية على لسانها عندما قالت: إذا كنت رجلاً تعال واقتلني.. ثم راحت تصرخ كما العاهرات، تصرخ في وجهي، بأني تافه ومخنث وبأنني لا أشبه الرجال..

مروان (وهو يغلق عينيه بأصابعه):

– نعم، قالت بأني لا أشبه الرجال.. قلت لها: سأقتلك والله يا زينب.. فإذا بها تذهب إلى المطبخ وتأتيني بأطول سكين.. رمتها على الأرض قرب رجلي، وهي تستخف بي، تعاندني بشراسة لا تطاق.. كانت تقول وهي تضحك: خذها يا مروان خذ، هذه السكين لك، إنها أمامك،

إذا كنت رجلاً يا مروان ابن كاظم اقتلني.. كانت تكرر الكلام بلا خوف، لم ترحم أعصابي، ولم ترحمنا السماء، كانت تثيرني وتسخر مني كنت أحدق في السكين أسأل نفسي عن سر هذا المصير الأسود الذي وصلت إليه..

(ثم بصمت فاجع):

– لقد انتهيت، هي كانت تعرف، لقد انتهيت، نعم، كنت قد انتهيت، ولا شفيع لكبريائي وكرامتي ورجولتي إلا في أن أمزقها بهذه السكين، أن أقتلها وأنتهي منها إلى الأبد.. راحت زينب إلى فراشها وغطت نفسها، تركتني وحدي أمام خوف وذلي وهلاكي. نظرت إلى السكين، ثم مددت يدي إليها، كنت أقبض على السكين بعذابي وانفلات أعصابي وجنوني، كانت أصابعي قد تشنجت على مقبض السكين.. وبسرعة لا أدري سببها ذهبت إلى فراشها وصرخت باسمها.. زينب، يا زينب، وما إن رفعت الغطاء عن رأسها وأبصرتني وأنا أرفع السكين عالياً حتى رأيت نفسي أطعنها في صدرها.. طعنة واحدة مزقتها تماماً.

(ثم بشيء من الخشوع والخوف معاً):

– ما إن رفعت نفسي عنها حتى رأيت السكين وقد غاصت في لحمها الطري..

السيد عوني:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

مروان (كأنه لم يسمع):

– كنت أنظر إليها، من يصدقني إذا قلت بأني رأيتها تبتسم؟.. كانت تبتسم في وجهي وهي تموت، مدت يدها نحوي كمن تريد أن تخبرني بشيء.. اقتربت، اقتربت منها مرعوباً خائفاً من منظر الدم الذي يغطيها.. اقتربت، سمعتها تهمس وما زالت تبتسم في وجهي: هكذا أفضل يا مروان.. هكذا أفضل، لقد أصبحت رجلاً بحق.. هكذا أفضل يا مروان.. و.. ماتت..

بعد صمت وخشوع أمام اسم الموت، قال السيد عوني:

– ساعدك الله يا سيد مروان، إنها مسالة مؤلمة حقاً.. لكن لماذا كنت بحاجة إلى ثلاثة أيام قبل أن تسلم نفسك؟

مروان ينهض من مكانه، ثم ينظر إلى السيد عوني ويقول بذل كبير:

– أنا لم أقتلها بعد.. أنا أفكر في قتلها.. أنا.. أنا الآن يا سيد عوني هارب منها.. هارب، فهي تريد أن تقتلني.. إنها تبحث عني..

السيد عوني يحدق في وجه مروان، باحتقار، ثم يقول:

– وما هذه القصة التي سمعتها منك؟!

صوت امرأة من خارج البيت، صوت قوي يقشعر الجلد ويملأ الزقاق رعباً:

– مروان.. أين أنت يا مروان.. هذا يومك الأخير يا مروان..

مروان (بخوف، وهو يمسك يد السيد عوني):

– إنها زينب.. ماذا أفعل يا سيد عوني؟

السيد عوني، حانقاً، غاضباً، وقد ترك يد مروان جانباً، ثم يفتح له الباب وهو يطرده بقوله:

– اذهب، اذهب ودعها تقتلك.. فهكذا أفضل يا مروان، هكذا أفضل بكثير.

تشرين 1989

أرجوك أن تبتعد قليلاً

المنظر الأول

صالة عريضة فيها رفوف من الكتب، توحي فوراً أن صاحب البيت يمتهن الكتابة، لا سيما الأوراق المبعثرة والكتب القليلة التي تظهر على مكتبه.

هناك لوحات تخطيطية لكبار الكتاب المعروفين، آرنست همنغواي، طه حسين، ماركيز، توفيق الحكيم، وربما لوحات أخرى لكتاب عراقيين – إن توفرت – هناك نافذة ستائرها السود مغلقة، والمكان على جانب من الذوق والفوضى معاً، سلة مهملات مملوءة بأوراق وجرائد، المسرح مفتوح ومظلم، يتسرب إليه الضوء ببطء حتى يأخذ شكله النهائي الذي يستقر عليه (حيث نرى المؤلف يكتب)، ومن المهم أن نقول – قبل التفكير في إخراج هذه المسرحية – إن هذا النمط من الأعمال يميل إلى خلق حالة من التأمل في فواصل الجملة الواحدة، ومن هنا تكون للصمت أو الإيماءة بين مشهد وآخر قيمة تصاف إلى قيمة النص مع اسهامات الإنارة والمؤثرات الصوتية، وبقية ما هو منسوب للديكور، وقبل هذا وذاك حركة الممثل وإبداعه وتأثير حنجرته أيضاً، حيث تصب الجزئيات الصغيرة كلها في محور واحد يكون السبب الذي سيحرك إحساس المشاهد صوب ما ربي وصوب ما سوف يسمع.

الشخوص:

ياسر: مؤلف في الأربعين من العمر

أشرف: صديق المؤلف

أربعة رجال

امرأتان

الوقت: مساء عند السادسة

الزمن: ما يراه المشاهد مناسباً لما يشعر به.

ياسر يسمع جرس الباب، يترك أوراقه مبعثرة كما كانت، يفتح الباب، يدخل صديقه أشرف، ملامحه توحي بالدهشة وهو يسأل.

أشرف:

– ما هذا؟ ما زلت في ملابس البيت؟ لكنني أخبرتك بأنني سأكون عندك في السادسة تماماً؟

ياسر:

لقد هبطت على ذاكرتي بل تسربت إلى جمجمتي قصة لا بد من كتابة بعض سطورها يا أشرف، أنا كما تعرف ضعيف الذاكرة، وأخاف أن تهرب هذه الفكرة مني كما هربت قبلها عشرات الأفكار..

أشرف (متهكماً):

– لا قصة ولا بطيخ، الجماعة ينتظروننا في السابعة، وأنت أول من وافق على عزومة الليلة.. هيا أرجوك، هيا ارتد بدلتك السوداء الجميلة، وإن شئت نعود مبكرين لتكتب ما تشاء..

ياسر:

– أرجوك أن تعتذر لهم نيابة عني، منذ وقت بعيد وأنا أشكو من عطب في مخيلتي كان يمنعني من الكتابة.. واليوم، بل قبل نصف ساعة فقط جاء شيطاني الوسيم المحبوب وأعطاني فكرة طيبة.

ثم يستدرك:

– اسمع يا أشرف، سوف أكون معكم بعد ساعة واحدة، أريدك أن تذهب الآن ولا تخدش حياء هؤلاء المساكين الذين يعيشون معي.

أشرف (ينظر حوله ببلاهة):

– من؟ أخدش حياء من؟ لماذا لم تخبريني أن عندك ضيوفاً؟

ياسر (مبتسماً):

– لا ضيوف ولا يحزنون، معي أبطالي، أبطال القصة التي أنوي كتابتها، إنهم منصور ومحاسن والعم عثمان وزكية التي تبيع القيمر.. أريد أن أكتب القليل عنهم ثم ألتحق بكم في أسرع وقت.. نعم، في أسرع وقت.

أشرف:

– سوف أنتظرك نص ساعة، ما رأيك؟ إنه وقت لا بأس به، وسوف أسكت ولن أنطق بحرف واحد.

أشرف (يستمر في كلامه):

– ولا كلمة، صدقني، أنا لا أريد أن أذهب بمفردي، أنت تعرف طبيعتي ومزاجي أفضل من سواك.. ثم تذكر أنكم جميعاً أدباء وأنا الوحيد الذي لا شأن له بهذا الغضب الذي تفعلون برغم أنني أقرأ أكثر من بعضهم..

ياسر (يقاطعه):

– حسناً، اسكت، اسكت، اجلس هناك (يشير إلى مكان في آخر الصالة) واقرأ الصحف والمجلات، ولا أريد أن أسمع حتى شهيقك أو زفيرك، عساني أنتهي بعد قليل ونذهب..

(أشرف ينفذ أوامر صاحبه ويجلس في المكان الذي أشار إليه ويأخذ مجلة يقرأ فيها، بينما يرجع ياسر إلى أوراقه وهو يفكر بصوت عال)..

ياسر:

– في ليلة من شتاء بارد موجع غريب، خرجت أبحث عن صديق يؤنسني، كنت مفلساً، لا أمنع نفسي عن زجها في زيارة ثقيلة، كنت أريد إنقاذ جسمي من جفاف قديم مؤلم، أنا رجل سكير لا أعرف النوم

قبل هلاكي وإرهاق شراييني بالخمر المعتق أو الخمر المغشوش.. المهم، أن أحارب هذا الجسد البطران الخاسر وأخدعه بالسم الذي أشربه ويشربني حتى أسقط ميتاً على فراشي.

أشرف:

– الله، جميل ما تقول وتكتب، أي والله، جميل هذا التعبير يا صديقي ياسر.

ياسر:

– أرجوك يا أشرف أن تسكت.. إنها نصف ساعة، وإلا تركتك تمضي إليهم بمفردك.

أشرف (يبتسم، وبهمس عال يردد):

– أنا ساكت، أنا ساكت.

ياسر (يمشي في الصالة ذهاباً وإياباً، وهو يكتب ماشياً، ويفكر ما زال بصوت مسموع):

– ماذا دهاني، ليس من جوع ولا عطش طوال هذا الوقت الماطر، ليس من صحو ولا ذاكرة ولا ذكريات، قطرة ماء في نهر عميق، نهر صغير داخل جرم بحري هائل، مطر يمسح الحقد والأحزان والمتاعب.. مطر يمسح الوظيفة والبيت والمدينة. شريك واحد يظهر من بين طيات

الغياب يشبه الموج، لا ملامحه تكفي ولا اقترابه يكفي، فقد مسح المطر الباذخ رباط نفسي بكل ما أعرف من أرض أو بشر أو أشياء.

ياسر (ينظر إلى أشرف):

– إذا كنت تريد أن تشرب شيئاً، هناك قرب الثلاجة سترى ما تريد.

أشرف (يبتسم):

– أنا ساكت، أنا ساكت، لكن بالله عليكم أين العم عثمان وزكية بائعة القيمر، وأين منصور ومحاسن؟

ياسر (وهو يبتسم أيضاً):

– أنا أكتب الهيكل، وبعدها أرى ما يناسب كل واحد منهم وأتركه في المكان المرسوم له.. إنها قصة ليست قصيرة يا أشرف..

أشرف (وقد شجعه كلام ياسر على النقاش والكلام):

– ولماذا لا يكون اسم البطل أشرف محمود؟ أنا صديقك منذ عشرين سنة ولم أدخل أية قصة من قصصك، ألا أستحق واحدة؟ أم أن محاسن ومنصور وزكية والعم عثمان أحسن مني؟

ياسر:

– اسكت الآن، وسوف تدخل في أحسن قصة من قصصي ولكن أرجوك أن تسكت.

ياسر (وقد رأى صديقه أشرف وهو يضع أصابعه على فمه علامة الصمت):

– في الساعة الثانية ظهراً، رحت أمشي خلفها، من زقاق إلى زقاق، ينقطع تحت حذائي شارع ويبدأ شارع آخر، وهو ما زالت تمشي، لم تتعب أبداً.. نظرت إلى عقاري الساعة، أصبحت الثالثة، معقول هذا الذي أرى؟ ستون دقيقة مرت وأنا لا أدري أين أصبحنا، لكنني بدأت أخاف أن تراني، كنت أريد الجوع لئلا أخسرها، من يدري، وأنا أمشي خلفها، ماذا ستقول عني؟ حدقت فيها – عن بعد – أفكر في اللغز الذي تعيشه محاسن لكنني ما إن وقفت.. حتى رأيتها تعرج على زقاق آخر. وبرغم إرادتي مشيت بسرعة حتى أرى المكان الذي تمضي إليه..

ياسر (يسكت وهو ينظر إلى صديقه أشرف، برهة، ثم يقول):

– لا فائدة يا أشرف، لا يمكن أن أكتب وأنت معي، لا يمكن أن أكتب، القصة تحتاج مني إلى إحساس واحد، هو أن أكون بلا رقيب، وبلا عيون، وبلا شهيق غير شهيقي.. إنني أتخبط بين المضائين والأفكار بلا فائدة.

أشرف (غاضباً):

– إنك تطردني صراحة يا ياسر، وبلا خجل أو تردد، هذه أول مرة أسمع فيها منك كلاماً قاسياً..

(ياسر يبتسم وهو يقترب من أشرف):

– أنت لا تفهمني أبداً يا أشرف، الكتابة طقوس، وكل واحد يكتب في حل لا يشبه أحوال غيره من الكتاب.. ولهذا سأترك القصة ونذهب وسوف أعود إليها في وقت آخر.. هيا ..

أشرف (ما زال غاضباً):

– أنا سأذهب وحدي، لا أريد أن أشعر أو أفكر أن بقائي صار عبئاً عليك.

ياسر (وهو يرى صديقه يمشي صوب الباب):

– ماذا دهاك يا أشرف، أنت أفضل أصدقائي إلى قلبي، لعنة الله على أية قصة تبعدني عنك أو تبعدك عني.. انتظر قليلاً وسوف نمضي معاً.

أشرف (وقد وقف عند الباب لا يتحرك):

– أريد أن أخبرك بصراحة، إنني أريد أن تكتب القصة، لقد أعجبني جداً ما كنت تردده قبل قليل، ولا أعتقد أن عزومة الليلة أهم مما كنت تكتبه أبداً..

ياسر (يبتسم):

– لكنني بدأت أعرف ما أريد منها، لقد دخلت الفكرة إلى رأسي، ولن أنساها أبداً، اطمئن.

أشرف:

– ما دام الأمر كذلك، هيا نذهب.

يبتسمان معاً، ثم ينتقل المسرح إلى المنظر الثاني.

***

المنظر الثاني

صالة كبيرة، مائدة عريضة عليها أنواع المأكولات والمشروبات، عدد الحضور – مع أشرف وياسر – ستة رجال وامرأتان – ما زالوا في حركة مستمرة صوب المائدة – ثلاثة رجال في مكان واحد، وثلاثة في مكان آخر، حتى يسمعوا صوت المرأة الأولى.

امرأة 1:

– تفضلوا، كل شيء صار جاهزاً على مزاجكم.

رجل 1:

– تسلم اليد التي صنعت كل هذا.

رجل 2:

– إنها ربة بيت من طراز خمس نجوم.

أشرف وياسر على المائدة بين بقية الرجال، أما النساء فقد جلسن على كنبة قريبة، لا تسمع أصواتهن برغم أنهن يثرثرن طوال ظهورهن – تقريباً – على خشبة المسرح.

رجل 3 (بعد أن يملأ الكؤوس):

– في صحة الجميع، أيضاً، في صحة كاتبنا المبدع ياسر جعفر.

رجل 4:

– منذ فترة لم نقرأ لك يا أستاذ ياسر، ربما كانت آخر قصة قرأتها لك هي منزل النوارس إذا كانت ذاكرتي طيبة؟

أشرف (يتكفل بالجواب بدلاً من ياسر):

– إنه يكتب قصة رائعة، لقد سمعت منها الكثير وأنا في بيته.

رجل 2 (بشيء من اللؤم):

– القصص يا أستاذ أشرف، لا تسمع، إنها تقرأ بهدوء، وإذا كان قد أطربك بعض الكلام الذي سمعته منها، فهذا لا يعني أنها قصة رائعة كما تقول.

ياسر (مبتسماً):

– ليس في الأحوال كلها، الكلام الجميل يبقى جميلاً إذا كان مكتوباً أو مسموعاً، وخذ مثالاً على ذلك القرآن الكريم.

رجل 2 (مرة ثانية):

– القرآن معجزة، ولا يمكن أن نقارن القصص التي نقرأها اليوم بهذا الكتاب العظيم، زمن المعجزات ولى وراح منذ وقت بعيد.. بعيد جداً.

ياسر (بهدوء):

– أنا لا أقارن، أنا أعطى مثلاً، وتذكر أن الإنسان الكبير يستطيع أن يصنع المعجزات حتى نهاية التاريخ، وإلا، ماذا تسمى التليفزيون والفيديو والصواريخ والطائرات..؟ إنها معجزات الإنسان المعاصر.. ولا ندري ما سوف نرى في بحر السنوات العشر الآتية.

أشرف (يدخل النقاش محتدماً):

– الكلام الجميل يدخل فوراً إلى الروح..

رجل 1 (يبدو أنه صاحب البيت والعزومة):

– هذا صحصح، والدليل أن في هذا العالم آلاف الملوك والرؤساء، لكننا لا نشعر بأي إعجاب بما يقولون إلا نفر قليل منهم.. وتأتي الحنجرة والكلام الجميل في أول أسباب هذا الحب..

رجل 2 (يبتسم بلؤم لم يزل):

– الخطابة يا ناس شيء، والقصة شيء آخر، القصة فن عسير المنال والخطابة أقرب إلى الإنشاء المدرسي..

ياسر:

– لا بد أن الأستاذ جرب كتابة القصة، فهو يقول كلاماً موزوناً وصحيحاً..

أشرف (مستغرباً كلام صاحبه):

– ولكن ما سمعته منك قبل قليل يا صديقي ياسر كان – حقاً – من أجمل ما سمعت؟

ياسر (وقد بدأت أمارات الضيق ترتسم على ملامحه):

– القصة يا أشرف، يا صديقي، ليست مقاطع جميلة، إنها عالم متشابك لا بد أن نحسن صناعته وإلا صارت مجرد كلام جميل مرصوف على الورق..

الرجل **2** (ضاحكاً):

– لقد جربتها في الثلاثين من عمري، وأعترف بأني فشلت، لكنني والحمد لله بدأت أعرف الفرق بين قصة وقصة.

أشرف (يصفق بيديه في أسوأ حالات تذمره):

– ولماذا إذن لا تصدق أن قصة ياسر كانت رائعة عندما أخبرتك بأنني سمعت منها الكثير؟

الرجل **3** (بمحبة وحذر):

– لكنك يا صديقنا أشرف لم تقرأ القصة كاملة، والشيء الناقص لا يمكن أن نعطي فيه رأياً حتى يأخذ شكله النهائي، تماماً كما البيت، كما العمارة، كما الجسور..

أشرف – بعناد ساذج –:

– أنا أعرف صديقي ياسر معرفة جيدة وأسلوبه في الكتابة لا ينافسه أي أسلوب آخر، يا ناس، أنا أعرفه كما أعرف نفسي..

الرجل 4 (يدخل محتدماً):

– أسلوب من؟ لمن تراك قرأت؟ عفواً. كنت أريد القول إن المقارنة مع الغير لها حسابها الخاص، أن نقارن مبدعاً عراقياً بمبدع عراقي آخر، أو كاتباً عراقياً بكاتب عربي، أو نقارنه مع الأجانب، وهكذا.. مع من كنت تقارن أسلوب ياسر يا أستاذ أشرف؟

أشرف (تبدأ علامات الحرج على ملامحه):

– أنا لست في قاعة امتحان، حتى أعطيك قائمة بمن أقرأ.. ثم إن صديقي ياسر معروف بينكم بما يملك من موهبة..

الرجل 2 (بشيء من التهكم):

– نحن لا نتحدث عن ياسر، إنما نتحدث عن قصة يكتبها ياسر ولم ينجزها بعد، ومن الحق أن نكون على حق في أحكامنا، لا سيما إذا كنا جميعنا أصدقاء ياسر وليس بيننا من...

أشرف (يقاطعه):

– نعم، كلنا أصدقاء ياسر، هذا صحيح، لكنني أكثركم قرباً منه، أكاد أراه كل يوم تقريباً، ولهذا أفهمه تماماً وأعرف كيف يكتب، بل أعرف طقوس حياته مع الكتابة أيضاً..

ياسر (بينا الرجال ينظرون إلى بعضهم، وقد أحس ياسر بطوق من الخجل والانكسار يمتد إلى عنقه بسبب مدح صديقه أشرف الذي جاء دون أي منطق سوى):

– يا جماعة، لا نريد أن تكون السهرة كلها عن قصة كنت أكتب فيها، وصديقي أشرف يحبني أكثر مما ينبغي، تماماً كما أحبه أنا..

امرأة 2 (تقترب من المائدة تأخذ بعض الصحون الفارغة):

– أنا أستطيع أن أحكي لكم قصة واحدة كل عشر دقائق، ليس هناك ما هو أسهل من القصص.. (وتوشك أن تحكي واحدة فعلاً) كان يا ما كان في قديم الزمان..

الرجل 3 (وقد راح الجميع يضحكون):

– إنهم يتحدثون عن شيء آخر يا أم زاهد، أما قصصك الجميلة فهي تناسب الإذاعة والتليفزيون فقط، بل تناسب نساء المحلة أولاً.

أشرف (ينظر إلى ياسر):

– هل ما زلت تتذكر أبطالك أم نسيتهم الآن؟ كنت أخاف أن تنسى القصة إذا ما جئنا هنا.

ياسر (يبتسم):

– بالعكس، إنهم معي، لكن جاءتني فكرة أفضل أرجو ألا أنساها..

أشرف:

– فكرة قصة أخرى:

ياسر:

– نعم، فكرة أخرى، وهذه المرة سوف تكون أنت نفسك بطل القصة كما كنت تريد (باستفسار ساخر) أما كنت تريد أن تصبح بطلاً في قصة يا أشرف؟

أشرف (مستغرباً ما يقوله ياسر ولا يكاد يفهم سبب الطريقة التي ينطق بها):

– ألا يمكن أن أعرف مكاني في هذه القصة؟

ياسر (وهو يرفع كأسه):

– في صحة صديقي أشرف، بطل قصتي التي سوف أكتبها الليلة..

الرجل 2 (لم تفارقه ملامح التهكم):

– هل يمكن أن نعرف ماذا سيكون عنوانها يا أستاذ ياسر؟

ياسر (واقفاً):

– بصراحة، أنا لا أكتب العنوان حتى تنتهي القصة، لكن الأمر هذه المرة، بل، هذه المرة فقط، سيكون مختلفاً، فقد قررت أن يكون عنوانها (أرجوك، أن تبتعد قليلاً) سوف أكتبها الليلة، ولن أفارقها حتى أنتهي منها مرة واحدة وإلى الأبد..

الجميع (باستثناء أشرف):

– في صحة (أرجوك، أن تبتعد قليلاً)..

أشرف (ينهض من مكانه وهو يحدق في وجه صديقه ياسر، ثم إلى بقية الرجال، يمشي صوب باب الخروج، يلتفت إلى الجميع وهو يوشك أن يسقط خجلاً):

– إنني أبتعد يا صديقي ياسر، إنني أبتعد، لكنني أرجوك حقاً ألا تكتب هذه القصة مطلقاً.

ياسر (يصرخ بأشرف):

– أشرف ماذا دهاك يا أشرف، انتظر انتظر..

أشرف يغلق الباب بقوة، بينما يتردد صدى كلمات ياسر:

– انتظر، انتظر..

الجميع يغرقون في الضحك، الرجل 2 يقول: – لقد ابتعد كثيراً قبل أن تبدأ القصة.

ياسر (على جانب من الحزن):

– إنه صديقي، لكنه يذكرني دائماً بالبيجامة التي تريد أن تصبح بنطلوناً.

الرجل 1 (وهو يرفع كأسه أعلى من رأسه):

– في صحة ياسر جعفر الذي باع صديقه من أجل قصة قصيرة.

المرأة 2 تبتسم:

– أنا لم أفهم أي شيء مما جرى.. ماذا جرى؟

ياسر (يردد بينه وبين نفسه):

– إنه إنسان طيب، لكنه لم يعد يناسبني، لم يعد يفهمني أبداً.

الرجل 3 يسال:

– ماذا كنت تقول يا أستاذ ياسر؟

ياسر (ينظر إلى الجميع، بهدوء، ثم ينظر صوب الباب الذي خرج منه صديقه أشرف):

– أنا أعتذر يا جماعة، لكن أزف الوقت ولا بد من ذهابي، أنا أشكركم فعلاً.

الرجل (صاحب العزومة):

– أي وقت هذا؟ السهرة لم تبدأ بعد!

ياسر (بصوت عميق وهو ما زال ينظر صوب الباب):

– السهرة لم تبدأ بعد، أنا أدري أن السهرة لم تبدأ بعد، لكن القصة هي التي بدأت.

7 آذار 1990

صباح الخير يا بتول

شخوص المسرحية:

بتول	شاب جامعي
صوت رجل	امرأة أولى، وثانية، وثالثة/ مجموعة ب
موظف أول، موظف ثاني، موظفة	امرأة متبرجة
امرأة أولى، ثانية، ثالثة، رابعة/ مجموعة	رجل خشنة الطباع
فتاة جامعية أولى، ثانية، ثالثة	زوجة رجل

يمكن الاستفادة من الممثل الواحد أو الممثلة – عدا شخصية بتول – في أكثر من دور بسبب عدم وضوح بعض ملامح الشخوص، شرط أن يتغير الصوت لئلا يشير إلى التكرار.

خشبة المسرح خالية، إلا من نخلة محترقة وكرسي من سعف النخيل وصندوق خشبي من تراث الماضي قرب النخلة مباشرة، وخلفية المسرح ستارة بيضاء جاهزة لأجواء ممطرة أو أجواء خريف تتساقط فيه أوراق الشجر.

لا بد من أشرطة سينمائية يراها الجمهور وقت الرجوع إلى حالة الطقس أو طبيعة المكان، وهذه ستكون فيما بعد أساس هذا العمل

المسرحي، لا سيما وأن عدد أبطال المسرحية – ظهوراً – امرأة واحدة، والبقية من الممثلين، بملامح لا ترى وأصوات نسمعها ولا نرى من ينطق بها.

أرض الخشبة، لا بد من أن يكون لونها أسود فاحماً، بحيث يساعد انعكاس هذا اللون – مع بقية أجزاء الديكور – على إعطاء الشعور بالكآبة، أما إذا انتقل الحال إلى جو مفعم بالفرح – كما سيأتي لاحقاً على ملامح البطلة – وهي حالات نادرة فتلك مهمة البروجكترات الساطعة التي تأخذ أنظار الجمهور إلى تلك الحالات الطارئة، وهي قليلة على أية حال.

من المهم تسجيل صوت دافئ مملوء بالشاعرية، هو صوت الرجل الذي سينطق بين حين وآخر، والذي تصغى إليه الممثلة، كعامل مساعد وجزء أساسي في بعض لوحات المسرحية، وأقترح اختيار الصوت بالصعوبة ذاتها الذي سنختار بها الممثلة، إذ إن حنجرة هذا البطل على جانب خطير في تلبية حاجة المسرحية، وبالتالي في دفع الممثلة حسياً ودون وعيه إلى التلاحم مع دفء الصوت وشاعريته وإنسانيته وطفولته – إن أمكن – حتى نصل إلى الكمال في إعطاء الصورة مجسمة – كما هي في ذهن المؤلف.

الستارة مغلقة تماماً، وعند انطفاء آخر ضوء في القاعة، تفتح الستارة على المنظر آنف الذكر، مع الممثلة، وهي جالسة على الأرض قرب الكرسي، تسند يدها اليسرى عليه، صامتة، أرجو أن يستمر صمتها

دقيقة ونص الدقيقة على أقل تقدير، بحيث يتساءل الجمهور عن سر هذا الصمت العميق الطويل.

كما أن الممثلة حافية، على امتداد وقت المسرحية، شعرها منثور بدون أية عناية، حالة يأس تامة جعلت تصرفاتها اقرب إلى الجنون دون أن تكونه..

تلك البداية على جانب كبير من الأهمية، آمل تنفيذها حرفياً، لئلا تخسر المسرحية أخطر شروطها كما سيبدو لاحقاً.

بعد صمت عميق، تنهض الممثلة، تمشي إلى منتصف المسرح، تقف، ثم ترجع إلى مكانها، تقف ثانية، تنظر إلى الجمهور، تحدق فيهم بعض الوقت، ثم، بحركة تشبه الصلاة، ينخفض رأسها قليلاً حتى يصل خشبة المسرح.. وفجأة، تنهض ثانية، تصرخ بصوت يشبه الهمس، مزيج من صراخ مهموس أو همس عال، تقول فيه:

– لماذا تركوني أكبر؟ لماذا تركوني أكبر؟ كنت أحب طفلة في بيت أبي، كنت أحب أطفاله إليه، لماذا تركوني أكبر؟ قلت له، أنا مجنونة بك يا أبي، وبكيت على صدره آلاف المرات..

لا أريد هنا، الدخول في عمل المخرج، حيث إن الحوار ينقطع ويعود وفق رغبته وحسب مشيئته، لكنني آمل منه التأكيد على نمط الحنجرة، فهي أساس وجذر المسرحية.

تمسك الممثلة أطراف ثوبها، ثم تمتد أصابعها على جسدها، تريد أن تتأكد من أنوثتها، وتقول بالصوت نفسه:

– عندما خطبني ابن خالتي، لم أرفض، هم رفضوه، ولم أعترض، كنت صغيرة، وحين جاء قصي ابن جارتنا زكية لم أرفض، هم رفضوه، وعندما طلبني عرفان، لم أرفض، هم رفضوه..

تمسك رأسها، شعرها، تحدق في سقف المسرح:

– كل من جاءني، كان رائعاً، أتذكرهم واحداً واحداً، كما أتذكر أحلامي وألوان ثيابي، هل أنسى أمجد وإبراهيم وهادي وعبد الله وصبري؟ كيف تنسى أي بنت في الدنيا وجه إدريس وعادل وجواد وسعدي وعزيز؟

هنا توشك أن تبكي، تنزل بجسدها، ببطء، وهي مستمرة في الرجوع إلى الماضي:

– لماذا ساعدوني على أن أكبر؟ كنت مجرد طفلة تأكل وتنام بين أمها وأبيها، لم أكن أرغب في سنة زائدة أو فستان أطول من فستاني، قلت لهم أنا فرحانة بهذا البيت، أعرف كل شبر فيه وأحبه كما أحب صديقاتي..

تكرر بشيء من الحزن:

– نعم، كما أحب صديقاتي.

ثم يصعد صوتها ويهبط حسب حالة الرجوع إلى الماضي:

– صديقاتي؟ كلهن تزوجن، ولم تبق منهن سواي.. إيمان صار عندها ثلاثة أطفال، وسندس رحلت إلى باريس بصحبته، وعفاف تركت شغلها في الوزارة من أجل عينيه، وليلى وعواطف، وسميرة، وفريال، وكوثر، و.. أنا.

صمت يتكرر بعد عبارتها (أنا) ثم تكررها:

– أنا؟ وحدي من بقيت في هذا المكان دون أنيس ولا سمير يواسي مشاعري، ظننت أن أبي سيبقى حتى أحتمي به، لكنه راح، لم يترك في وصيته سوى سلام.. تحية صغيرة وحفنة من الدنانير.. راح، لم يترك سواي أنا.

هنا، تمطر السماء، بغزارة، صوت المطر يطغى على خشبة المسرح، ومن المهم أن يطغى على القاعة هذا الإحساس بالمطر، مطر غزير جداً.. ومع صوت المطر يرتفع صوت الممثلة:

– أنا وحدي يا أبي من بقيت، لماذا أعطيتموني عواطفكم كلها، ثم تركتموني وحدي؟ لماذا يا أبي؟ لقد ذهبت إيمان وسندس وليلى وعفاف.. لماذا تعاقبونني بالحب، أنا وحدي. أنا وحدي..

يخفت صوت المطر وهي تردد:

– أنا وحدي، أنا وحدي.

في هذا المشهد وهي تردد (أنا وحدي) يأتي صوت دافئ يقول بشيء من المحبة الممزوجة بالصرامة:

الصوت:

– ما بالك يا بتول؟ هذه ليست نهاية الدنيا، إنها مجرد مشكلة صغيرة هناك آلاف البنات يعشن بلا زواج، وهن سعيدات بما هن، عليه لماذا تبالغين؟

تلتفت بتول إلى الصوت، تبتسم، تكبر ابتسامتها حتى تصبح أشبه بالضحك، تزداد الحالة انفعالاً فتصير ضحكاً عالياً وهي تقول:

– نعم، نعم هي مشكلة صغيرة، ولكن قل لي: هل كنت يوماً ما امرأة حتى تفهم هذا الشعور؟ هل جربت كيف تكون الحياة في يوم ماطر وأنت – إذا ما كنت امرأة – دون أب ودون أم ودون أنيس؟ لماذا تكون الكلمات هكذا رخيصة؟

صوت الرجل يأتي ثانية:

– الكرة الأرضية تعاني من القنبلة النووية، وتخاف من تجاربها، هناك ملايين الصواريخ تعبر القارات من بلد إلى آخر، وإذا ما اشتعلت الحرب سيندثر كل شيء ولن يبقى لهذه المشاعر أية قيمة.. اهدئي، اهدئي يا بتول.

بتول ترفع يدها إلى السماء ثم تكبو على ساقيها مثل (جمل) يريد الجلوس. ثم تضرب أرض المسرح بيديها بقوة، مرة واحدة، ثم مرة ثانية، ثم قبل أن تضربها ثالثة تلتفت وتقول:

– هل تريدني أن أكف عن أكل طعامي ما دامت القنبلة النووية ستسقط فوقي؟.. أم أترك تنظيف جسدي إذا ما انطلق صاروخ يعبر القارات من فوق رأسي؟.. لماذا تزوجت سندس وعفاف ما دامت الحرب ستشتعل بعد حين؟ لماذا أنا وحدي من تصغى لهذا الكلام؟

على الشاشة تظهر معارك حربية حقيقية، نسمع صوت الرجل وهو يردد:

الصوت:

– انظري يا بتول، انظري، الناس تموت في كل أرجاء العالم، ما قيمة أحاسيسك إزاء ما يدور؟ انظري إلى هذه الجثث تتراكم بدون حساب..

بتول تقترب من الشاشة ثم تلوي رأسها مثل إنسان ميت، وبعد قليل تبتعد عن الشاشة وهي تقول بتول:

– أنا ميتة يا سيدي، أنا والله مقتولة مثلهم يا سيدي.. كنت أريد الموت حتى أنتهي من هذا الجزع وهذا اليأس وهذا الوجع الذي صار يذبحني.. كنت أحلم بالموت حتى لا أكشف عن هذا الجرح الذي أصابني.. هل تراك تفهم؟

تجلس على الكرسي، تنكس رأسها قليلاً ثم ترفعه وتهمس بصوت مجروح:

بتول:

– أنا لا أشكو، أنا لا أريد أن أشكو، أنا أخاطب نفسي، ألا يحق لي أن أخاطب نفسي، ألا يحق للمقتول أن يثرثر مع بقايا شهيقه الأخير؟

الضوء في المسرح ينقطع تماماً، ثم يظهر الضوء على الصندوق، بتول تقترب من الصندوق في ظلمة المسرح.. ما إن تقترب وتلامس بأصابعها الصندوق ويرى الجمهور باب الصندوق يفتح ببطء، حتى ينتقل المشهد إلى غرفة في دائرة رسمية، موظف شبه محنط وموظفة سمينة ورجل أمامه أوراق كثيرة تحجزه عن العيون – تقريباً – ومعهم بتول..

الضوء خفيف على بتول، حيث يقول الموظف الأول:

الموظف الأول:

– آنسة بتول، معاملات العقار ناقصة وهناك ورقة ضائعة لم نعثر عليها حتى الآن..

بتول ترفع رأسها ثم تنظر إلى الموظف دون كلام..

الموظف الثاني يبتسم ويقول:

– آنسة بتول، اطمئني آنسة بتول، سآخذ المعاملات إلى بيتي وأنجزها الليلة.

بتول ترفع رأسها دون كلام أيضاً، لكن الموظفة السمينة تقول:

الموظفة السمينة:

– وكيف سنعثر على الورقة الضائعة يا آنسة بتول؟

هنا، تبدأ كلمة (آنسة بتول) تتكرر مثل صدى في الغرفة، يزداد الصدى قوة حتى تمسك بتول رأسها بين يديها ونعود إلى المشهد السابق أمام الصندوق.

بتول:

– كلا، إنهم يحرقونني بكلمة آنسة، نهم يسخرون مني، كأنهم يقولون أيتها الناقصة، أيتها الناقصة، تماماً، كأن الزواج من أي رجل آخر هو الدليل الوحيد على الكمال في هذا العالم..

هنا يأتي الصوت أكثر دفئاً وطيبة:

الصوت:

– هم يحبونك يا بتول، بل تبرع أحدهم بإنجاز المعاملات في بيته، فهل يسخر منك هذا الرجل وقد أثبت صدق ما قاله يومها؟

بتول:

– أنا مرهقة جداً، تعبانة، أينما وليت وجهي ينظرون إلى أصابعي، يسألون عن أسراري كأنهم أصحاب حق فيها..

هنا نسمع أصوات نسوة من كل جانب من جوانب المسرح وزواياه:

صوت أول:

– عمرها صار فوق الثلاثين وما متزوجة؟

صوت ثاني:

– الله يستر من بنات هذا الزمن.

صوت ثالث:

– جاهه فوك العشر خطابة وما تزوجت.. ليش؟ ما تدرين.

الصوت الأول يعود للقول:

– عمرها فوق الثلاثين.. اشتنتظر؟

صوت رابع:

– آني متزوجة وعمري أرباطعش سنة..

الصوت الثاني يكرر:

– الله يستر من بنات هذا الزمن.

تسكت الأصوات، وتبتعد، نسمع صداها بينما يرتفع صوت بتول:

بتول:

– هذا بعض كلامهن عني، كيف تعيش إنسانة مثلي مع هذا النوع من البشر؟ كيف أسمع هذا الكلام كل يوم ولا أحترق؟ كيف؟

الصوت:

– أنت على حق، ولكن هل أسألك أنا، لماذا حقاً لم تتزوجي حتى الآن؟

بتول، بيأس:

– حتى أنت؟

الصوت:

– أنا أسال من أجلك يا بتول..

بتول:

– يقولون: عندما يتزوج الرجل المرأة يصبحان شخصاً واحداً، والصعوبة الأولى هي تقرير من هو الواحد منهما.. هل سمعت أو قرأت كلاماً بهذا المعنى؟ أنا يا سيدي لا أريد الزواج حتى أتباهى كما تفعل آلاف البنات.. أنا أريد إنقاذ نفسي من هذا الوباء الذي يطاردني أينما حللت.. أنا لا أشبه غيري من البنات، أنا أريد الإنسان الذي لا أخاف

معه ولا أندم.. لكن الوباء يطاردني ويريد أن يرغمني على القناعة بأول من يأتي..

الصوت:

– أي وباء يا بتول؟

بتول:

– كلام الناس، كلام الناس، لا تدري كم هو مرعب كلام الناس، مخيف قاتل، مجرم، وكلام مرعب غير معقول، فيه قسوة بلا حدود، مخيف، نعم مخيف، كلام مصنوع من السم، كلام قاتل ليس بينه وبين الجريمة سوى خيط باهت، كلام مجرم.. اسمع.. اسمع ما يقولون عني، اسمع هذا الكلام المخيف..

ثلاث نسوة في عباءات سود لا تظهر وجوههن بوضوح، ورابعة متبرجة تنظر في المرآة وهي تضع أحمر شفاه بطريقة غير مهذبة.

المرأة الأولى:

– الرجال موغشمة، كلشن زين يعرفون شنو هي.

المتبرجة:

– يمعودة، هاي مسكينة، ويمكن مخبلة، شوفيها كل يوم شايلة كتب بكد رأسها.. وشايلة وياهن خشمهه عشر بايات.

المرأة الثانية:

– الله يعرف شيسوي. هم زين ما تزوجت، جان حركت الصوبين..

المرأة الثالثة:

– والله عيني، أنا بنتي أزوجها وهي صغيرة، تروح تصير مثل هاي العوبة وتكسر وجهنا..

ثم ينتقل الضوء فوراً، إلى بتول وهي في حالة أقرب إلى الصلاة.. وببطء ترفع رأسها وتقول:

بتول:

– هل سمعت ما يقال عني؟ هل سمعت؟ كل هذا الكلام القاتل السفاح الذي أسمعه بين يوم وآخر لأنني لم أتزوج.. فقط لأنني لم أتزوج!

الصوت:

– لكنه كلام مجموعة جاهلة من البشر، لماذا تتأثرين بهم إلى هذا الحد؟ هناك نوع آخر أطيب نفساً وأنظف وجداناً..

بتول بهستريا هادئة:

– من؟ من؟ أي نوع هذا؟ هل جاء من المريخ؟ تعال واسمع، اسمع، هذا نوع آخر، أكثر وعياً، كما تريد، وأكثر ثقافة.. اسمع ما يقال عني..

مشهد في كفتريا صغيرة، شاب واحد وثلاث فتيات، أمامهم على الطاولة مجموعة من الكتب، وهم يحتسون الشاي.

البنت رقم 1:

– آني فعلاً مستغربة، بتول حلوة وحبابة، شنو السر إلى اليوم ما تزوجت؟.. حتى أخويه قبل سنتين راد يتزوجها، وبطل..

الشاب (وهو يحتسي الشاي):

– مو شرط، الزواج مثل ما يقولون قسمة ونصيب.

البنت رقم 2:

– شنو قسمة ونصيب الله يخليك، إحنا نعرف البنت اللي بيها عيب، لا قسمة عدها ولا نصيب يجيبها.. الدنيا هيجي من ألف سنة حتى اليوم..

الشاب (يبتسم):

– لا آني ما أريد أدافع عنها، بس الدنيا مو مثل ما تقولين، لا فرنسا ولا أمريكا ولا السويد أكو عددهم القسمة اللي تحجين عنها.. أكو تفاهم، هذا هو الشرط الأساسي: التفاهم..

البنت رقم 3:

– يا تفاهم؟ يعني شلون، شنو قصدك؟ منو يتفاهم يم منو؟ مجتمع عربي عنده أساس وتقاليد من ألف سنة..

الشاب:

– المشكلة الحقيقية، شلون نصلح هذا المجتمع.. المشكلة بينا إحنا، لو بس نكدر انسوي حل لأنفسنا جان المجتمع تلقائياً ينصلح..

البنات الثلاثة ينهضن مرة واحدة ويتركن الكافتريا بينما تقول إحداهن:

البنت رقم 1

– إنني بعد سنة أتخرج من كلية الآداب وأخونا يحجي عن إصلاح المجتمع..

البنت رقم 3:

– يلا، المحاضرة يمكن بدت..

الشاب يهز رأسه، ثم تنتقل بقية المشهد إلى بتول (وهي تضحك) بتول:

– هذوله متعلمين، شنو رأيك؟ هؤلاء كما تريد، هم خيرة أبناء المجتمع هل سمعت ما يقولونه عني؟

الصوت:

– على أية حال، إنهم مجرد حفنة من البشر، هذا لا يعني أن الجميع يفكرون بهذه الطريقة، ثم تذكري، أن الشاب كان يدافع ضد أفكارهن..

بتول (بشيء من الغضب):

– هل تريد مني أن آخذك إلى بيوت كل الناس؟ أنا لا أستطيع الذهاب إلى بيوت الناس كلهم.. لكنني أعطيتك أمثلة على نماذج منهم..

الصوت:

– أنت تريدين الزواج يا بتول.. كل ما تفعلينه الآن مجرد اعتذار حتى تتزوجي.

بتول:

– قل ما تشاء.. نعم أنا أريد أن أتزوج، أريد أن أتزوج، أريد أن أنقذ نفسي من كلام الناس أنا تعبانة، أنا تعبانة..

القاعة تصرخ مع صوت بتول: أنا تعبانة، أنا تعبانة، ثم تهدأ القاعة على صوت أغنية عراقية قديمة..

بتول:

– (بيأس) بس، هذا يكفي، هذا يكفي، أنا لم أمت بعد، أنا ما زلت على قيد الحياة..

مع آخر عبارة (أنا مازلت على قيد الحياة) تقع بتول على الصندوق، ثم نرى ملامح بيت عتيق، نسمع منه صوت رجل خشن الطباع:

الرجل:

– شلون يعني، عندي سبع ولد وبنات اثنين، أجيب وحده لخ فوك هذا الغضب؟ هوشكد راتبي حتى أخلي حلك لاخ ياكل ويانا؟ معقولة...؟

صوت امرأة (هي وزوجته):

– عيب، على كيفك، إذا سمعتك بتول هسة تعوف البيت.. البنية تفتهم وكلش حساسة..

الرجل:

– حساسة، تفتهم، هاي مشكلتها.. آني ما أكدر أعيش الناس كلهم.. آني ما أكدر، ما أكدر..

لقطة على وجه بتول، وهي تردد بطريقة مخبولة:

بتول:

– عنده تسع جهال، شلون يصيرون عشرة؟ آني مكطوعة من شجر الدنيا كلها.. ما شفت واحد يكول (خطية).. من يوم ما مات أبويه، ما شفت واحد يكول خطية.. ليش؟ ليش؟

الصوت (مستغرباً):

– غريبا بتول، ها أنت تتكلمين بطريقة لا تناسب أمثالك أبداً، مع ذلك....

بتول (تقاطع الصوت):

– مع ذلك شنو؟ هي المسألة مسألة كلام؟ آني أموت وأنت تكول مع ذلك؟ مع ذلك شنو؟ كول

الصوت (وهو يبتعد):

– آني آسف فعلاً..

بتول (بسخرية):

– آسف؟ ليش آسف؟ آني ما أريد واحد يتاسف على، اشبعت شفقة، ما أحب الشفقة.. ما أريد شفقة..

الصوت (يبتعد أكثر):

– آني آسف ..

بتول:

– شنويعني؟ المشكلة بعدها.. وآني أريد أعرف النهاية.

الصوت (يبتعد):

– المشكلة أنت، والحل معك أنت.

بتول (بدهشة وغضب):

– آني المشكلة، آني المشكلة وآني الحل؟ يعنى شلون؟

بتول (وهي تقترب من الجمهور):

– يعني شنو آني المشكلة وآني الحل؟ يعني ماكو أحد يساعدني؟

تصرخ:

– من صنع المشكلة؟

ثم تهدأ:

– ماكو مشكلة أبداً، آني أريد واحد يسمعني و.. بس، أريد واحد يفتهم مشاعري و.. بس

ثم بهدوء غريب:

– الدنيا تغيرت، هواية تغيرت، آني ما أريد أتزوج، أريد أشوف واحد، واحد بس، نظيف وابن حلال، يكول صباح الخير يا بتول، بس يكون قصده صباح الخير فعلاً ..

المسرح وهو ينطفئ تدريجياً، نصغي إلى صوت بتول:

بتول:

– الدنيا تغيرت، ليش تغيرت؟ الدنيا تغيرت؟ هواية تغيرت.. آني ما أريد أتزوج، بطلت أفكر بالزواج، أريد أشوف إنسان نظيف، واحد بس، واحد بس، يكول صباح الخير.. يكول صباح الخير، بس المهم يكون قصده صباح الخير من صدك..

الصوت (يعود ثانية، يأتي قوياً، صادقاً):

– صباح الخير يا بتول.

بتول تدور، وتدور، بفرح حقيقي، وهي ما زالت تسمع كلمات الصوت تزداد حباً وصدقاً، وهو يردد (صباح الخير يا بتول)..

بتول تركض بخطى تشبه الطيران، ثم تقف وترمي قبلة في الهواء نحو مصدر الصوت، ثم تردد بفرح عظيم:

بتول:

– صباح الخير عيوني.

1988

هذه المرة نعم

يبدو من النافذة العريضة، أن المكان هو مكتب في طابق مرتفع جداً عن الأرض، ستائر زرق وبيض تغطي أجزاء من النافذة، والمكتب على جانب من الذوق والفوضى معاً، فهو مزحوم بالكتب، منسقة في دواليب على جانبي النافذة، في الوقت نفسه، هناك جرائد ومجلات، بعضها ساقط على أرض المكتب، بعضها مركون في زاوية منه، المنظر الذي يراه المشاهد من خلال النافذة، من الضروري أن يوحي بالمسافة الشاسعة بين المكتب العالي والأرض، كأن نرى – مثلاً – بعض السحب، أو سطوح عمارات أخرى، هذا متروك لمن يعني بالديكور.

هناك أيضاً، طاولة مستطيلة، وأربعة كراسي، وسلة مهملات مملوءة بأوراق وجرائد ممزقة. على جدران المكتب بورتريت أو فوتوغراف بعض المشاهير من الكتاب والفنانين في العالم، نختار منهم آرنست همنغواي، الشاعر مايكوفسكي، الروائي الياباني يوكيو ميشيما، الممثلة مارلين مونرو إن توفرت، وبعكسه يمكن اختيار سواهم، شرط أن يكونوا نم نوع الأدباء والفنانين المغامرين أو المنتحرين، المهم، أن يوحي المنظر برمته ويشير بوضوح إلى أنه مكان خاص بأديب مشهور، وأن توحي الصورة المختارة على جدران مكتبه أن هذا الكاتب يعاني من فكرة الموت.

سوف نسمع بين لحظة وأخرى، أصواتاً تأتي من الشارع، لكنها تصل خافتة واضحة، بسبب ارتفاع المبنى، النافذة مفتوحة والستائر تتحرك إحساساً بالهواء الذي يأتي من الخارج.

المسرح مظلم تماماً، ومع بدايات الكلام الذي سنسمعه، يتسرب الضوء ببطء غلى خشبة المسرح وعلى امتداد نصف دقيقة حتى يأخذ المكان شكله المضيء الذي يستقر عليه، أو قد يتغير بمرور الوقت ضمن الحالات النفسية – أو الفنية – التي يراها المخرج.

من المهم أن نقول، قبل إخراج هذه المسرحية، إن هذا العمل يميل إلى خلق حالة من التأمل في فواصل العبارة الواحدة، ومن هنا يكون للصمت بين مشهد وآخر والعناية بما هو خارج الكلام (حركة الممثل، توزيع الإنارة، استخدام المؤثرات الصوتية، صدى الفضاء الخارجي للمكان، استثمار مزق الأوراق والجرائد والمجلات، وبقية ما هو منسوب إلى الديكور) قيمة ثانية تضاف غلى قيمة النص، دون أن تنفصل عنه، أي، من الضروري أن نعطي الإحساس بأن كل ما أوردناه من (مؤثرات) هو من صميم فعل النص ومن لحمة هذا الفعل المسرحي، وبالتالي يصبح الكاتب مخرجاً والمخرج كاتباً، ومن هذا المعنى يستثمر كل واحد منهما (المخرج – المؤلف) طاقة الثاني حتى يأخذ العمل شكله النهائي.

المؤلف جالساً مرة، ثم، وهو يمشي في الغرفة ذهاباً، وإياباً، وفق ما تمليه حالة التأليف، والسكرتيرة، وهي في حدود الثلاثين من العمر،

تكتب، وانفعالاتها تنسجم مع طبيعة الكلام الذي يمليه عليها المؤلف (وهو في الستين من العمر تقريباً)..

المؤلف:

– ما كنت أريد أن يموت، أبداً، ما كنت أريد له أن يموت، إنه عزيز على جداً، أنا لا أقتل أبطالي أبداً، لكنه وحده الذي فر من بين يدي ورمى بنفسه إلى الموت.. كنت أسأل نفسي: كيف يكون الموت؟ هل هو نوع من النوم العميق؟ هل ترانا حقاً سنعيش ثانية بعد موتنا؟ يقال إن الموتى ينظرون إلينا، أرواحهم تمشي بيننا وتتكلم معنا (السكرتيرة تنظر حولها كمن تحدق في الموتى)، لكننا لا نستطيع ما يقولون، لا نسمع، كم هو مؤلم وموجع أن يكون ثمة من يتكلم معك وأنت لا تدري به ولا تشعر بما يقول.. لماذا يصنع الموت هذه الكمية من الخوف؟ وأي سر غريب أن نرى بين ملايين البشر رجلاً واحداً لا يخاف هذا الموت؟ لماذا يرعبنا اسم الموت؟ الموت، ألا يكفي رعباً أن نقول عن صديق كان بيننا ذات يوم (أنه مات)؟ ذلك يعني أنه لن يعود، لن نراه، لن نسامره مساء ولا نسمع بأخباره أبداً.. أبداً، يا للذعر، كيف يمكن أن ينتهي الإنسان هكذا؟ إن كل واحد منا هو دنيا بأسرها، دنيا تمتد من الطفولة، سنوات من الطفولة، تعبر جسر البراءة نحو الصبا، سنوات من الصبا، سنوات من الدهشة والحب والغرائز التي تستيقظ في الجسد البشري سوات ندخل بعدها قصر الشباب، سنوات من التباهي والغرور واكتشاف الحزن واندلاع المتاعب، سنوات، كم هو عجيب هذا الإنسان؟ سنوات من

الطفولة؟ سنوات من الصبا، سنوات من الشباب؟ سنوات من الرجولة، سنوات من الشيخوخة، سنوات من ألم ومرض، مغامرات وجنون، عشق وخيبة وأفراح وأحزان بلا حدود، كيف يموت الإنسان وقد صار بعد هذه السنوات (دينا) كاملة؟ دنيا من الذكاء والتجارب، دنيا من الوعي والمعرفة، كلها تذهب عند باب الموت كأن شيئاً لم يكن، كان شيئاً لم يحدث.. هل يمكن أن يجف البحر؟ هل ينتحر البحر؟ هل يموت البحر؟ كيف يموت الإنسان إذن، وهو أعظم أبناء الطبيعة؟ كيف؟..

(القلم يسقط سهواً من يد السكرتيرة، تعتذر من المؤلف بابتسامة منكسرة، لكن المؤلف مستمر في الكلام، لم ينتبه إلى سكرتيرته والقلم الذي سقط منها)

المؤلف:

– كم هو عدد الذين أحببناهم وعشان معهم، كم هو عدد الأصدقاء الذين عرفناهم وثرثرنا معهم ونام كل واحد منا في ذاكرة الثاني؟ كم؟ أين هم الآن؟ أين هم الآن؟

(المؤلف ينظر إلى الشارع، صوت ارتطام سيارة بسيارة وصراخ)

– أين هم الآن؟ ربما كان أحدهم اللحظة يسخر مني، وهو يراني أكتب هذا الكلام المضحك.. إنه يدور حولي، ربما كان يدور حولي، في هذه الغرفة، لا أدري ماذا يقول؟ لكنه بالتأكيد يتذكرني، يتذكر أيام طفولتنا وصبانا، أيام المدرسة الابتدائية، أيام البراءة.. نعم أيام البراءة،

عزيزة على قلبي أيام البراءة، فهي تغادرنا بعد هذه الطفولة مباشرة، تصبح البراءة مجرد كلمة كنا نعيشها، كنا نحس بها، كنا نعيش فيها، ثم تهرب منا تهرب كما يرهب الماء، كما يرهب السجين البريء من قبو انفرادي.. أجسادنا، بعد الطفولة، سرداب معتم، سرداب مبلل، تزدحم فيه الطحالب وثعابين الماء.. سرداب مظلم، ما كان من ضوء فيه سوى الطفولة، أيام البراءة التي غادرتنا بسرعة، بسرعة، بسرعة.

(السكرتيرة وهي تكتب، تردد بصوت خائف يشبه الهمس)

السكرتيرة:

– بسرعة، بسرعة، بسرعة..

المؤلف

– أنا أكثر الناس حرصاً عليه، كيف يقتل نفسه وقد كان أكثر زهواً بالحياة؟ (يسكت قليلاً) هل كان أكثرنا زهواً بالحياة؟ من يدري.. الإنسان لغز، الإنسان سر كبير، باب مغلق، الإنسان أخطر أسرار الطبيعة، وأنا، كنت أعرف بعض ما يدور في عقله، أعرف الكثير عن عذابه والكثير عن نزواته، أعرف أشياء لا يعرفها سواي، أشياء كثيرة، أما أن يقتل نفسه، أن يقتل نفسه، فهذا آخر ما كنت أصدقه.. لماذا؟ كان رجلاً معروفاً، كان محبوباً من الناس، صحيح كان مثل ملايين البشر، لا بد من حاقد عليه أو منافق لا يحبه وقد يسيء إليه، هذا شئ

طبيعي لا يمكن أن يكون السبب وراء موته. لماذا إذن يقتل ماضيه وحاضره بهذه الطريقة القاسية؟!

(ينظر إلى الشارع، ثم يلتفت غلى السكرتيرة حزيناً مرتبكاً)

– احذفي كل شيء، سنبدأ القصة بأسلوب آخر..

السكرتيرة:

– كل شيء؟

المؤلف: كل شيء، مزقي هذا الكلام، إنه لا يناسب اسمي أبداً.. نعم، هذا الكلام لا يناسب اسمي..

السكرتيرة:

– أرجو أن تعذرني يا أستاذ، إذا طلبت منك الاحتفاظ به لنفسي..

المؤلف:

(مرتبكا): لا، لا يمكن، مزقي هذه الأوراق فوراً، أنا لا أحب هذا النوع من الكتابة، القصة أنا أعرفها، وهذا الكلام لا يناسب حجم الفاجعة..

(السكرتيرة تزق الأوراق دون رغبتها، وهي تنظر إلى المؤلف نظرة عتاب)..

المؤلف، وهو يمشي في الغرفة، بطيئاً مرهقاً مرتبكاً:

– اكتبي في وسط الصفحة (ممر واحد إلى الروح) لا، لا، امسحي هذا العنوان الساذج، أكتبي (أبوبا مفتوحة).. انتظري، لا تكتبي أي شيء لا أريد عنواناً، سنتركه إلى ما بعد نهاية القصة.

(السكرتيرة تبتسم وهي تشطب الكلام الذي كتبته، ثم تصغي غليه والقلم بين أسنانها ..)

المؤلف:

– كان يعيش معي، في بيتي، إذا أحببت شيئاً صار يحبه مثلي، وإذا ما كرهت شيئاً بات يمقته قلبي.. دخلت من الباب الأول، الباب الأول من كوابيسي، رايت دماً وصديقاً أعرفه من سبع وثلاثين سنة، دماً يابساً وإناساً أحببته من سبع وثلاثين سنة، كان يعيش معي، في غرفتي، في كوابيسي، أراه يبكي، أسأله في كوابيسي: لماذا تبكي؟ مذاا تفعل؟ لماذا تدخل إلى حياتي وكوابيسي وتفتش في أوراقي؟ ألا يكفي أنني أعطيتك بعض بيتي وأسكنتك غرفتي؟ ألا يكفي؟

يومها قال لي: أنا أموت، أرجوك أن تصبر على ما بقى من حياتي.. اصبر، أنا أريدك أن تصبر، لن يطول بك الاستياء مني، أعرف أن شهيقي ثقيل عليك، لكنني سأموت، أنا لا أريد الحياة، فقد طالت أكثر مما ينبغي، أكثر مما ينبغي، وهذا يكفيني أيها العزيز، أنا لا أطمع في عمر أطول من عمري هذا، صدقني، أنا لا أريد أن تكرهني، لا أريد أن أكون بطلاً في قصصك أو في كوابيسك، لا أريد أن أخسرك.. أنت ربحي الوحيد في

العالم، ومن يربح عليه أن يترك صالة القمار بسرعة قبل أن يخسر كل شيء.

(المؤلف ينظر إلى الشارع، ثم يلتفت إلى سكرتيرته ساهماً يأخذه صمت مفاجئ ما إن يطول قليلاً حتى تسأله سكرتيرته).

السكرتيرة:

– أستاذ، من يربح، عليه أن يترك صالة القمار بسرعة، قبل أن يخسر كل شيء.. هل أكتب شيئاً آخر؟ المؤلف:

– نعم، أنت على حق، وهو أيضاً كان على حق، من يربح عليه أن يترك صالة القمار بسرعة، قبل أن يخسر كل شيء..

(يردد العبارة نفسها ثلاث مرات، في كل مرة ينطقها بإحساس مختلف، لكنه أكثر عمقاً من السابق)

المؤلف:

– عجيب، كم يتعب البعض من أجل المال، أو النساء، أو المناصب.. المال والنساء والمناصب، سنوات مزدحمة بالمنافسات.. سنوات مشحونة بالنفاق والغضب، ثم، ثم يأتي الموت، يسخر من هذا السباق البائر.. يضحك، أنا اسمع الموت يضحك فعلاً، أسمعه بنفسي يضحك، في كل مرة ذهبت فيها إلى قريب مات أو عزيز يموت على يدي، أشعر به يضحك.. ليس هذا محض تعبير، إنني أسمعه فعلاً، وأكاد ألتفت إليه

وأصرخ به.. نعم، كنت أريد أن أصرخ بالموت: لماذا تضحك؟ الناس تبكي وأنت تضحك.. الناس تبكي وأنت تضحك..

(السكرتيرة تشرب قليلاً من الماء بسرعة، لئلا تغفل عن أيما كلمة، ثم تضطر إلى السؤال)..

السكرتيرة:

– هل أكتبها مرتين يا أستاذ؟

المؤلف: هه؟

السكرتيرة:

– الناس تبكي وأنت تضحك، هل أكتبها مرتين؟

المؤلف يهز رأسه موافقاً، ثم يستمر:

– الناس تبكي، وهذا الأخطبوط يمد سيقانه شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، لم يتعب، لم يتعب، كائنات الكون كلها تتعب، إلا هذا الأخطبوط، فهو يأتي كاللصوص، يدخل البيت متى يشاء، يأخذ من يشاء.. يدخل البيت الذي يشاء، ويخطف من يشاء.. لا أحد يعترض، لا أحد يعترض، كيف يعترض الإنسان على أخطبوط، كيف يعترض الإنسان على أخطبوط؟!

السكرتيرة وهي ترى المؤلف صامتاً:

– قهوة؟

المؤلف يهز رأسه علامة رفض هادئة مسكينة.

السكرتيرة:

– شاي؟ سيجارة؟

المؤلف يهز رأسه ثانية علامة رفض أكثر حزنا، ثم يكرر مرة أخرى كمن يغرق:

– من يربح، عليه أن يترك صالة القمار بسرعة قبل أن يخسر كل شيء..

السكرتيرة:

– أكتبها؟ هل أكتبها مرة أخرى يا أستاذ؟

(المؤلف لم يكن يصغي إلى كلام سكرتيرته ويستمر في الكلام)..

– من يربح، لعيه أن يترك صالة القمار بسرعة، لئلا يخسر كل شيء، ومن يعترض عليه أن يهرب بعيداً عن رأس الأخطبوط لئلا يخسر عمره.. هذا الكابوس كان معي، يعيش في ثيابي وبين مساماتي، يدخل في وأدخل فيه، يدخل في وأدخل فيه، أحسه ينام في أعضائي، في كل جزء من جسدي.. كنت أصرخ به: لماذا تريد أن تموت؟ لماذا تريد أن تموت؟ نص في البشرية تعيش آلامها وفقرها، نصف البشرية لا تدري أي معنى

وراء هذا العمر الممتد من المجهول إلى المجهول، إنه قانون الكون، مكتوب علينا منذ جئنا إلى هذا الكون..

(فجأة يقطع المؤلف عملية التأليف ويلتفت إلى سكرتيرته)

– هل رأيت إنساناً يموت؟ أخبريني، ماذا كان إحساسك وأنت تنظرين غلى ذاك الجسد الميت؟

السكرتيرة (وقد فوجئت بهذا السؤال):

– أنا، أنا سمعت بموت بعض الناس، أقرباء أو أصدقاء، لكنني لم أكن قرب أي واحد منهم.. نعم، لم أعش هذه الحالة، لكنني...

المؤلف (يقاطعها)

– لكنك تخافين منها، تخافين حالة الموت، تخافين اسم الموت، أليس كذلك؟

السكرتيرة (بهدوء):

– بصراحة يا أستاذ، أنا لا أفكر بالموت، لم يخطر على بالي.. الآن، وأنا أصغي إليك، بدأت أفكر فيه قليلاً.

المؤلف:

– قليلاً؟ تفكرين فيه قليلاً؟!

السكرتيرة (بشيء من البلادة والتردد):

– هل أخطأت في شيء؟

المؤلف مستغرباً:

– كيف؟ كيف؟ الموت في كل مكان، يأتي في كل يوم، يذهب إلى كل شبر في هذه الكرة الأرضية ولا فروق ولا امتياز بين رجل وآخر أو امرأة وامرأة، الموت نسمع به، نقرأ عنه، الموت هنا، في هذا المكان الذي نحن فيه..

(يشير إلى الصور، بينما السكرتيرة تنظر إلى المكان بشيء من الخوف).

السكرتيرة:

– هنا؟ في هذا المكان؟ كيف؟

المؤلف (يستدرك رأفة بها):

– عفواً، ليس هنا تماماً، الموت حقيقة، الموت إيمان، كل شيء حي، لا بد أن يموت في يوم ما.

السكرتيرة:

– هل أكتب هذا؟

المؤلف:

– لا، لا تكتبي، إنه كلام مع نفسي..

(المؤلف يمشي موازاة النافذة، ثم يصغى إلى أصوات متفرقة، سيارات وبشر، ثم يعود إلى سكرتيرته، مبتسماً):

– أين وصلنا؟

السكرتيرة:

– نصف البشرية لا تدري أي معنى وراء هذا العمر الممتد من مجهول إلى المجهول، لكنها تعيش، إنه قانون الكون..

المؤلف (ينظر إلى سقف الغرفة):

– نعم، هذا صحيح، نصف البشرية لا تدري أي معنى وراء هذا العمر الممتد من المجهول إلى المجهول، لكنها تعيش، إنه قانون الكون، إنه قانون الكون، نأتي إلى الحياة، نعيشها حتى الرمق الأخير، آجلاً أم عاجلاً سيأتي الموت، على حين غفلة سيأتي، ربما في البيت وأنت نائم، ربما في الشارع وأنت تمشي، ربما في بلد آخر، ربما بين أحضان امرأة شهية.. لكنه سيأتي، ربما اليوم، رما إذا، لماذا نستعجله.. كيف نستعجل الموت؟ كنت أستطيع أن أمنعه من الموت، يكفي أن أمد يدي إليه وأقول لا.. لا تقتل نفسك، ثمة أمنيات هناك، ثمة آمال كبيرة سيأتي زمانها، ثمة أحلام جمل سنعيشها.. لكنني أعرفه كما اعرف نفسي، أعرفه كأعصابي ودمي ولحمي، أعرف أنه لا يصدقني، لا يصدقني أبداً، أي أمنيات وإلى آمال، وأية أحلام احكي عنها؟ سيقول بصوت قاتل: أنت كذاب كبير. أنا لا أصدق حرفاً واحداً مما تقول.. نعم، أنا كذاب كبير، إنه على حق،

أعرف أنه على حق وهذا يمنعني من الوقوف بين يديه،، أتوسله أن ينقذ نفسه، أتوسل أن يهدأ يوماً آخر أو ليلة أخرى، عساه يهدأ ويفكر في هذا المصير الأحمق، كنت أريده أن يهدأ، أن يهدأ، لماذا يستعجل، الإنسان، موته، لماذا يستعجل، الإنسان، موته؟ لكنه كان يسخر مني.. دائماً كان يضحك مني، يصرخ بي: لماذا نعطيه الحق في اختيار نهايتنا؟ من يكون الموت حتى نعطيه الحق في رسم آخر لحظة من حياتنا؟ لماذا هو وحده من يكتب آخر صفحة من كتابنا؟ ألا نملك بعد هذا العمر الطويل، أن نختار اليوم الذي نموت فيه؟ الساعة التي نريد؟ الدقيقة التي نقرر؟ كيف، وأنت الكاتب المبدع لا تعرف أن تبدع نهاية رائع لهذا النبض التعبان في أوردة القلب؟ كيف وأنت الإنسان الذي أجاب على أصعب أسئلة الناس لا تعرف أن تكتب الجواب على سؤالك العسير؟.. كان يقول ليك إذا بقيت حياً سنخسر معاً كا ما ربحناه، قلت له: أنا لم أربح أي شيء في هذا العالم ..لكنه أقنعني حين قال: أنت تربح هذه القصة التي بين بيديك.. قلت له: إنها محض سطور، أنا لم أبدأ بها بعد، أنا لم أبدأ بها ؟ فكيف أربحها؟.

كان يصرخ بي، لا أدري لماذا يصرخ بي: ستعرف، وأنت تموت، إنك قد ربحتها فعلاً.. ستعرف، وأنت تموت، في آخر ثانية ستموت فيها ستفهم أنك قد ربحتها فعلاً !..

المؤلف يكرر: "ستعرف وأنت تموت أنك قد ربحتها فعلاً" أكثر من مرتين..

السكرتيرة (تنظر إلى المؤلف تارة وإلى أوراقها تارة أخرى وهي تهمس مع نفسها بصوت مسموع)..

السكرتيرة: ستعرف وأنت تموت أنك قد ربحتها فعلاً..

فترة صمت تطول قليلاً، المؤلف، يقترب من سكرتيرته، حزيناً جداً، يمد يده اليمنى غليها، يصافحها، ثم يمد يده اليسرى فوق يدها.. فترة صمت يقطعها بقوله:

– أنا أشكرك جداً.

السكرتيرة تريد أن تنهض لكن المؤلف يدعوها إلى الجلوس بحركة من عينيه ويستمر الكلام:

المؤلف:

– أنا حقاً أشكرك جداً، يمكنك الاحتفاظ بهذه الكلمات، أنا لا أريد نشرها..

(ينسحب على مهل، وهو ينظر إليها بعد أن ترك يدها تسقط على فخذها من فرط الدهشة، وإحساس منها برعب هادئ لا تفسير له بات يسري على ملامحها، ثم تنهض مثل مومياء)..

السكرتيرة: لماذا تشكرني يا أستاذ؟

المؤلف:

– سنوات وأنت معي، سنوات طويلة ولا تريدين مني أن أقول شكراً؟

السكرتيرة:

– لكنك يا أستاذ لم تقلها من قبل..

المؤلف وهو يبتعد عن سكرتيرته:

– هذه المرة، نعم، على من يربح، أن يترك صالة القمار بسرعة، قبل أن يخسر كل شيء، اسمه، وسمعته، ماضيه، وحاضره، من يربح، عليه أن يترك صالة القمار فوراً، لئلا يخسر كل شيء، وأنا الآن، يا سيدتي، أترك صالة القمار إلى الأبد.

(المؤلف، فجأة يركض نحو النافذة العريضة، منتحراً، وتأتي آخر كلماته كأنها قادمة من بحر عميق أو من بئر مهجورة)..

صوت المؤلف عنيفاً بعيداً:

– انشريها، انشريها...

السكرتيرة تركض إلى النافذة، تنظر إلى المؤلف الذي انتحر أمام عينيها.. بهدوء تغلق النافذة مع صوت ارتطام وضجيج في الشارع.. السكرتيرة هادئة كالمجانين، ترتب الأوراق بهدوء كأن شيئاً لم يحدث، ثم – وهي تريد أن تغادر خشبة المسرح – تنظر إلى الجمهور وتتحدث إليه بابتسامة مرة مرة:

– أنا سمعته يقول (انشريها).. ماذا تقترحون أنتم؟ هل أنشرها؟ هه هل أنشرها؟

فترة صمت قصيرة جداً، ثم تقول:

– أنشرها باسمه، أم باسمي؟ هذه المرة، نعم، سأنشرها باسمي.. لا سيما وأنه نسي أن يدفع راتبي لهذا الشهر..

ثم، تغادر المسرح وهي تتأبط الأوراق باعتزاز وخوف.

تشرين ثاني **1988**

الخمرة لا تسكر الموتى

جدران مهدمة، أرض المسرح مغطاة بالتراب وكسر الطابوق، شنشيل ملثومة، ثياب ممزقة، ما زالت على حبل الغسيل.

الكومبارس (رجال وأطفال وشيوخ ونساء) يقطعون المكان بشيء من البلاهة أو بشيء من الغضب، أو بكثير من الخوف. معوقون على عكازات من خشب رديء، صورة من "جنرال" بنياشين وأوسمة كثيرة، الصورة مكسورة ومحطمة، لكنها لم تزل أمام المشاهد والجنرال فيها يضحك، وخلف جزء من الشبابيك المهمشة ترى صورة ثانية للجنرال نفسه بثياب عربية – كوفية وعقال – وهو يبتسم عن أنياب كبيرة.

خشبة المسرح يمكنها أن تأخذ الكثير من (الخردوات) وبقايا حطام شامل، حتى تشير بذلك إلى مدينة مخربة تاماً، سيعرف المشاهد فوراً – وبسبب أصوات الطائرات والقنابل وصافرات الإنذار وصراخ النسوة وركض الكومبارس خروجاً ودخولاً إلى خشبة المسرح – أن ثمة حرب ما زالت مشتعة.

لا بد من بروجكتر خاص لصورة الجنرال، فهي البديل الثابت لكل تلك الكوارث التي تمر بها المدينة، كما سيظهر ذلك جلياً من خلال الحوار، لكن الضوء لا يستمر على الصورة طوال عرض المسرحية، بل يأتي عليها عندما يكون الأمر بحاجة إلى رسم من هذا النوع.

الشخوص:

الحاج محمود: رجل في السبعين من العمر

أم إبراهيم: امرأة في الخمسين من العمر

أم رزاق: امرأة في الأربعين

ياسر: شاب معوق في الثلاثين

رزاق: طفل في الثالثة عشرة من العمر

مجموعة من النساء إحداهن حامل في شهرها الأخير

مجموعة من الأطفال

المجنون شاب تجاوز الثلاثين من العمر

امرأة في الخمسين، عباءتها ترفرف خلفها، وهي مذعورة، تنظر نحو السماء تارة وخلفها تارة، ثم تضرب خدها بطريقة عراقية مألوفة لدى النساء، ثم تنتبه إلى طبقة البيض التي تحملها باليد اليسرى.

المرأة:

– معقول يا ناس؟ معقولة؟ كل هذي البلاوي توكع علينا والدنيا كلها ساكتة؟ معقولة يا عالم؟ شنو؟ ماكو رحمة؟ ماكو ضمير؟

رجل عجوز، هادئ، وبرغم الرعب. فهو يحرك (مسبحته) بين أصابعه وينظر صوب السماء، الجميع – على امتداد زمن المسرحية – ينظرون إلى السماء بين لحظة وأخرى. الرجل يسمع كلام المرأة (يبدو أنه يعرفها) ويبتسم بمرارة وهو يقترب منها.

الرجل:

– أي معقولة أم إبراهيم، الحرب حرب، شوفي، حتى اسمها غير معقول.. حرب، والحرب ما تفهم الرحمة ولا الضمير.. لو تربح، لو تخسر.

أم إبراهيم – وقد عرفنا اسمها الآن – وهي تسأل بهلع، برغم أنها تعرف الجواب طبعاً، ولكن ليطمئن قلبها:

– وإحنا خسرنا؟

الرجل (بسخرية وهدوء وهو ما يزال ينظر إلى السماء):

– لا، بعدها ما محسومة أم إبراهيم.. يمكن !

أم إبراهيم (وهي تمشي في طريقها نحو بيتها):

– الله يستر حاج محمود.. مع السلامة.

الحاج محمود (كما أصبح اسمه الآن) يبتسم وهو يردد مع نفسه:

– مسكينة.. بس لا يجيها صاروخ ويطشر البيض.

يدخل المسرح طفل في حدود الثالثة عشرة من العمر وامرأة في الأربعين وهما يشتركان في حمل برميل صغير، يقترب الحاج محمود ليأخذ الطرف الذي يحمله الطفل.

الحاج محمود:

– خليني أساعدك بابا..

ثم يلتفت إلى المرأة وهو يسأل:

– أم رزاق، بعدها هوسة على النفط. لو شوية خفت؟

أم رزاق (وهي تمط شفتيها بألم):

– يوم القيامة.. الناس صايرة لحم فوكً لحم..

ثم تستدرك كمن نسيت شيئاً:

– حاج محمود. هاي الحروب شلون تنتهي؟

الحاج محمود يتحرك من مكانه ثم ينظر إلى صورة الجنرال (يفرك المسبحة بشيء من الغضب):

– ايم الله "ويسكت".

أم رزاق (باستغراب ممزوج بالخوف):

– ايم الله حاج محمود؟ بروح والدك شلون؟ هذا تاسع يوم والصواريخ تنزل مثل المطر..

الحاج محمود (ينظر إلى صورة الجنرال بغضب ممزوج بالحقد):

– شنو تسعة أيام، إنتي نستي السنين اللي راحت أم رزاق واحنا بالبساطيل؟ عمرنا كله راح بهاي الحروب.. الله غاضب علينا.. أم رزاق أختي، اللي إيده بالنفط (ويشير إلى البرميل) مو مثل اللي إيده بالعسل.. ناس وين (ويشير إلى الجنرال) وناس وين (بإشارة إلى نفسه).

أم رزاق (وهو ينظر إلى ابنها الذي ترك البرميل)

– اسكت أخوي حاج محمود، اسكت وداعت المرحوم، الدنيا ترك موأمان..

صوت انفجار يأتي من مكان بعيد، وصراخ، ثم انفجارات متفرقة خفيفة هنا وهناك، المسرح يطفأ وتبقى ثمة إضاءات تشير إلى حالة القصف ثم اختراق طائرة تخطف أجواء القاعة..

الحاج محمود (وهو يرى البرميل يسقط من يد أم رزاق):

– لا تخافين أختي.. الجماعة جايين مخصوص على النفط.. يمكن عرفوا أنتي شايلة نفط، كالوا هاي هم حصتنا... لا تخافين، موص وجهم صوج الجابهم علينا..

أم رزاق (وهي توشط على البكاء):

– هاي مو حياة.. لا والله، مو حياة، خلصنا من العجم بعد كومة سنين، هالمرة ثلاثين جيش وكلهم ما يخافون الله (تنظر إلى السماء) كفار، وما يخافون الله..

الحاج محمود (بغضب مكتوم):

– همسة إحنا ليشن نروح للغابة ونتحارش بالسبع؟

يهز رأسه ويستمر بالكلام متأوهاً بين عبارة وعبارة:

– هو إحنا يا أم رزاق، صدكنا نخلص من إيران؟ هالمرة نتحارش بأمريكا؟ أكو لعبة هواي جبيرة.. لعبة خبيثة، وإحنا اللي صرنا ضحيتها.. (يرفع يده نحو السماء) الله يجازي اللي يلعبها وما يخاف من الله.

أم رزاق (وهي ترفع البرميل ثانية):

– حاج محمود، الله يخليك، خل نأخذ النفط ونروح للبيت، هاي الصواريخ ما تعرف تلعب.. يروح واحد منها يشم النفط ويركض ورانا..

الحاج محمود (يبتسم بمرارة):

– بالعكس، بالعكس أم رزاق، هاي الصورايخ تعرف مكانها أحسن منج ومني، تدرين هاي منين جاية؟ (يستمر دون أن ينتظر سؤالاً منها) هاي جيتنا من البحر، يعني بينها وبين بغداد خمس مرات منا للبصرة

وشوفي وين توكع.. عالهدف تماماً.. (يهز يده وهو يضحك) لا يا به، إحنا شبرين بصف الهدف ويطلع صاروخنا على بيوتنا..

يدخل المسرح رجل معوق في الثلاثين من العمر، يبدو أنه سمع الكلام الذي قاله الحاج محمود.

الرجل المعوق:

– لا ما إلك حق أبو مصطفى (ويعنى به الحاج محمود) إنت ما شفت الحرب مثل ما شفناها وعشنا بيها.. صحيح أنت هم جنت جيش شعبي، بس وربك اللي خلقك واحدنا يعادل عشرة.. إي والله، واحدنا بعشرة أبو مصطفى.. هي شغلة صغيرة نهزم إيران وه يخامس جيش بالعالم؟

حاج محمود (وهو يبتسم بمحبة):

– هله بالبطل، هله بياسر، شلونك ابني؟

ويستمر الحاج محمود وهو يقترب من ياسر؟

– تراه آني زين أعرف الرجال.. وأدري إحنا شلون أبطال، بس المشكلة اليوم مو مشكلة بطولات فردية، البطولات الصدك راحت وي زمن الأنبياء.. المشكة هالمرة آلات وأجهزة ما نعرف نصنع مثلها.. حبيبي ياسر، الله سبحانه وتعالى علم الإنسان ما لم يعلم.. بس بصراحة إني أسأل نفسي كل يوم: ليش سبحانه وتعالي علم هذوله الكفار ونسه يعلمنا؟ هو ربهم لو ربنا؟

ياسر (يوشك أن يضحك قبل أن يفاجئه اختراق صوت عنيف من طائرات تحلق على انخفاض):

– شوف حاج محمود. شوف بنفسك، هاي أخلاقهم أولاد الكلب أصلاً الطيران المنخفض داخل المدن جريمة كبرى.. بس منو يسأل؟ منو يحاسبهم بعدين؟ والله يا حاج محمود، والله، والله إحنا أوادم وكلوبنا طيبة، كلش طيبة، بس حظ ماكو، نخلص من حرب نطب بحرب.. يمكن الله غاضب علينا.. أكيد الله غاضب علينا.

الحاج محمود (بصوت متألم):

– النفط، ابني ياسر، النفط، كلها تريد تكرف وتنهزم..

ياسر (بألم):

– أنعل أبو النفط، لو بس يخلص، ونخلص منه.. يعني سوانه النفط إحنا الشعب، أشو الفكر كاتلنا، نركض والعشا خباز من يوم الملك فيصل إلى هذا اليوم، شوكت شفنه خير من صدك؟ أشوكت شعبنا من صدك؟ يمكن شوية هنا بزمن ذاك المكرود عبد الكريم قاسم وشوية عنا بزمن ذاك المسكين، أي صار خير، حسينا بي، بس خير من صدك ما شفنا أبد.

طفل في السابعة (يدخل المسرح) راكضاً وهو يحمل شظايا قنابل:

– طيط، طيط، طيط..

الحاج محمود (ينظر إلى الطفل الذي اختفى بسرعة كما ظهر بسرعة):

– شوف، حتى الأطفال صاروا يفهمون القصة.. القصة يا حبيبي ياسر، هي باختصار، طيط، وطيط جبيرة هم.

الانفجارات لم تكف، والناس بهلع كبير، والرؤوس لم تزل تحدق نحو السماء، ثلاث نسوة يحملن شموعاً مثبتة على قطع صغيرة من الخشب في طريقهن إلى النهر.. تلك العادة المعروفة للنذور عند النساء.. واحدة منهن حامل في أيامها الأخيرة، تمشي بصعوبة..

الحاج محمود (في حديث غير مباشر مع النساء):

– ما يفيد، لا نذور ولا طهور، هاي قنابل ما تفهم لا أنبياء ولا أوصياء.. هالمرة شمعة؟! البركة إن شاء الله بالجيل الجاي (ويشير إلى المرأة الحامل)..

واحدة من النساء:

– الله أكبر منهم، إذا أراد الله يخلي قنابلهم ترجع عليهم.. هسه تشوف.

الحاج محمود (بسخرية لاذعة مؤلمة):

– والكمبيوتر شنو شغلة؟ الكمبيوتر ما يعرف الله ولا عبد الله.

ياسر (يدخل في الحوار بشيء من الغضب):

– حاج محمود، أنت كلش يائس..

الحاج محمود (وهو يجلس على دكة خشب مهملة):

– لا عمي ياسر، آني أدري مصيرنا شنو، آني فاهم هاي أحسن منك، هذا الشيب (ويشير إلى شعر رأسه) ماجاني من العمرو هذا الشيب إجه من القهر، قهر هذوله أولاد الـــ ....

واحدة من النسوة (وهي تشير بإصبعها إلى الحاج محمود):

– حقه عيني، آني لو منه أسب المفتح والمايستحي من الله.. شنو، ولدنه من طين يروحون هيجي بلاش؟ والله حرام، كلش حرام داده.

فجأة يدخل المسرح، شاب مخبول، ممزق الثياب، وبرغم أنه وسيم الطلعة، لكنه يتحرك بطريقة بهلوانية تبعث على البكاء أكثر مما تسبب الضحك.. ليس من شك – كما سيبدو لاحقاً – أن هذا المجنون كان أديباً أو قارئاً جيداً في زمن ما.. فهو يردد كلاماً غريباً، ويقف مثل الشعراء خلف المنابر ليقول حكمة ما أو شيئاً من الشعر..

المجنون:

– العاقل في الحرب أمين.. يمة!

الحاج محمود يبتسم وهو يصغى إلى النسوة والمجنون في وقت واحد (ينهض من مكانه ثم يعود إليه):

– والله محتار ابني ياسر.. (يلتفت إلى المجنون بحسرة) هسه الواحد شيسوي؟ نشوف الموت فوكً بيوتنا، ونشوف أولادنا صاروا مخابيل، ونشوف الحرامي بغرفنا، ونشوف الواوي يلعب ب ..... وما نكدر كلشي نسوي.. معقولة هاي الحال اللي إحنا بيها..؟

المجنون (يقاطع كلام الحاج محمود دون تعمد طبعاً):

– أمي حلوة. أمي تكول: السقوط مرة واحدة بس عد النسوان، السقوط مرة واحدة لا يكفر رجال السياسة.. أمي حلوة، أمي كلش تفتهم أمي تكول: البرتقالة تكفي عائلة.. والحرب كذلك.. أمي حلوة.....

الحاج محمود (وهو يهز رأسه ألماً وقد ابتعد المجنون قليلاً عن خشبة المسرح):

– معقولة شعب كامل ما يكدر يحرك إصبعه؟ هو هذا نفسه شعبنا أبو الثورات اللي شال المكوار والفالة بوجه الطيارة؟ آني ما أكدر أصدك نفسي ابني ياسر... الناس جوكات جوكات تروح للموت، وأهلهم المساكين يشوفون الويل والحسرة قاتلتهم بس كلهم ساكتين.. كلهم ساكتين، ليش؟ شنو اللي صاربها الدنيا؟ خرفان خو مو خرفان.. حتى الخروف لما يذبحونه يكول (مع) يعني يعترض.. إحنا حتى الماع بطلنا

نكولها.. خايفين من نفسنا نكون (ماع) مثل الخرفان، وخايفين ليش وإلى متى؟ بس لله يدري.. أستغفر الله، يمكن حتى الله نفسه ما يدري..

المجنون (من طرف خفي بعيد عن الحاج محمود):

– الحرب ليست أنثى، أمي حلوة، أمي تكون: الحرب مومرة، الحرب واحد رجال كلب ابن كلب..

ياسر (بألم) وهو ينظر إلى المجنون تارة وإلى الحاج محمود تارة أخرى:

– أستغفر ربك أبو مصطفى، كلشي إله نهاية، المجنون يصير عاقل، واللي انكسر يتصلح.. ولازم تنتهي الحرب ويرجع كلشي الماكنه..

الحاج محمود (بإصرار على الكلمات):

– ابني ياسر، آني ماذا أحجي عن الحرب.. تنتهي ما تنتهي للجهنم، آني أريد أفهم شعبنا وين راح يروح، إشراح يسوي بحياته وشلون يعيش؟ هاي الحال اللي إحنا بيها ما معقولة أبداً.. أبداً.. حتى سبحانه وتعالى ما يرضا علينا يوم القيامة.... حتى يصف الخرفان راح يرفض ايخلينا.. على الأقل خل نكول: ماع، ولو مرة واحدة !

(المرأة الحامل تعود وحدها دون بقية لنسوة وهي تمسك بطنها بألم...)

ياسر (باستغراب مخلوط بالدهشة):

– يعني شنو قصدك حاج محمود؟ آني أحس بكلامك، بس ماذا أفتهم كلش زين.

حاج محمود (ينظر إلى صورة الجنرال ويشير إليها بإصبعه):

– ما أريدك تفهم هسه.. آني خايف عليك مثل ما جني أخاف على ولدي ..

ثم يتنهد على كمية حزن كبيرة:

– ولدي، ولدي اللي راحوا من إيدي على شيء ما يسوه، وإذا كان يسوه ما شفنا من وراه أي شي.. عفيه بلد كلك غلط من آدم إلى يومنا هذا.. غلط وره غلط ..

ياسر (يهز رأسه موافقاً بأسى شفيف):

– صحيح، والله العظيم صحيح، آني هم أكول – ويه نفسي – كلشي غلط، بس شنسوي أبو مصطفى، شنسوي عمي محمود، شنو بإيدينا نسوي والنار مفتوحة جوه الحلك؟

المجمون (بصوت مضحك):

– مي حلوة، أمي تكول: هاي أول مرة أشوف حكومة كلها كصاصيب. كلامهم كله رصاص وسجاجين وكطع رؤس.. أمي تفتهم، كلش تفتهم (ثم بلغة عربية سليمة) أمي في غاية الحسن والجمال، هي التي أخبرتني: أن الشعب يبقى والحكومات إلى زوال..

الحاج محمود (وقد أحزنه كلام المجنون وقبله كلام ياسر المعوق):

– المشكلة موبينا إحنا الفقراء، المشكلة ذولة أولاد الحرام اللي يصفكون على كلشي، شوف الجرايد والتليفزيون ووطيحان الحظ المكتوب هنا وهنا.. الناس تموت بالمئات كل يوم ويجي واحد يكول – مثل عين الكحبة – إحنا انتصرنا.. شلون يابه انتصرت؟ يكول الكرامة والكبرياء وهاي الحجايات الجبيرة اللي اتعب ألف نفس..

ياسر (بكثير من الحرص على الحاج محمود):

– أبويه، اسكت، تره البلد مليانة من هذوله اللي سميتهم أولاد الحرام.. يجي واحد منهم – يبيع أبوه بدينارين – يودي جلدك للدباغ.. اسكت الله يخليك، أنت مثل أبويه.. وتدري آني اشكد أحبك واشكد أخاف عليك.

أطفال يعبرون المسرح، بكثير من الرعب والهلع، وهم يلتفتون إلى الخلف كأن هناك من يطاردهم، والمجنون يتحرك معهم ويصرخ مثلهم..

الطفل رقم 1:

– عبود أحترك..

الطفل رقم 2:

– لكم حسين أخويه احترك.

المجنون:

– آني، أمي، منو احترك؟

الطفل رقم 3:

– بسرعة للبيت.

الطفل رقم 4 (بشقاوة تقترب من الحماقة)

– لك هاي شلون نار الكباب يستوي عليها كبل ما تشتعل.

(المسرح عموماً في حالة من ارتباك مقصود، ليس من شيء واضح، تماماً كما هي الحرب، لا شئ على حاله وليس من حال يشبه الحقيقة.. أطفال يصرخون ونساء يأخذهن الرعب إلى البكاء والعويل.. المجنون يتحرك بشكل عشوائي غير منضبط.. الحامل تلصق نفسها بالجدار).

امرأة في الطريق:

– هاي هم صارت بالدنيا، لو بس ويانا يارب؟ زين الله ما يشوف اللي صار بينا؟ أستغفر الله العظيم.. الواحد صاير يكفر بله ما يدري.. أستغفر الله، أستغفر الله.

ثم (وقد سمعت المرأة صوت انفجار هائل):

– وينك ربي؟

الحاج محمود (وهو يرى ذلك كله وبقربه ياسر):

– شوف ابني ياسر.. البلد خربانة كلش.. رجعونا ليوره ألف سنة.. ليش يأبه؟ علمود يأخذون النفظ أولاد الكلب..

(يسكت الحاج محمود لحظة ثم يقول بشيء من ألم دفين):

– من أيام التأميم، هاي المسألة خلوها سكتة من أيام التأميم.. وشوف اللي صار... النفط ارح يرجع الهم والدنيا كلها مثل ما يريدون، صافية دافية، نفط ومعادن وذهب ويمكن حتى سلام عربي مع إسرائيل، واحنا، مثل ما تشوف ما عدنا مووضع نحجي بيه غير الكرامة والكبرياء والشهامة والرجولة.. كلام حلو، كلام للبيع، وفوك هذا كله، الأغاني الطايح حظها اللي تسوي الأسود أبيض والأرعن سيد زمانه..

(ياسر يبتعد عن الحاج محمود دون سلام ولا كلام، ما إن ينتبه إليه الحاج محمود حتى يسأله بألم)

الحاج محمود:

– هاي وين ابني ياسر؟ أشو لا سلام ولا كلام.. على الأقل خل أسمع منك مع السلامة.

ياسر (وهو يلتفت بحزن عميق إلى الحاج محمود):

– عمو محمود، أبويه محمود، يا حاج محمود. أنت ناوي تقتل نفسك بهذا الكلام.. مو كافي أولادك اللي راحوا بلاش، هالمرة أنت.. وشنو الفايدة؟ بربك شنو الفايدة؟ لا هذا الكلب راح يروح ولا هاي المصيبة

راح نشوفلهه حل.. وربك ماكو (حل) إلا إذا أراد الله.. ومثل ما أشوف آني: ربك راح بعيد كلش عن العراق، أعتقد سبحانه وتعالى مخبوص بغير مكان.. (يبلع ريقه كمن يبكي وهو مستمر في الكلام) أبويه حاج محمود، الله يخليك روح لبيتك..

المجنون (من بعيد):

– ماكو ضوة بالبيت.

ياسر (يستمر في الكلام مع الحاج محمود):

– صحيح ماكو صورة بالبيت وأنت تحب تسمع أخبار (يقترب منه) هاك آني عندي جم باتري مال راديو صغير يرهم على الراديو مالك.. روح أسمع أخبار، روح أسمع، بس ماكو داعي تموت نفسك، ومنو يستاهل؟ ألعن الجوك من تحت ليفوك.. بس المهم أنت تبقى سالم.

الحاج محمود (والدموع تنزل على خديه مرغماً وهو يأخذ أحجار الباتري من ياسر الذي يتأهب لمغادرة المكان):

– آني أبداً ما خايف على نفسي.. عمري صارفوك الستين.. كافي، كلش كافي.. ما راح أكثر من اللي خسرته، أولادي راحوا مني باسم العزة والكرامة، وتحرير أرض الأجداد، وحياتي راحت مني بالجيش الشعبي وسهر الليالي والقشمريات، وآني واحد تعبان.. وأولاد الحرام عايشين على حبة ونص.. قصور وحفلات ونساء وخمور ومحرمات.. وإذا

سألنا اليوم عن العزة والكرامةوتحرير أرض الأجداد نشوف كلشي رجع لمكانه، عفية ناس ما تستحي أبداً؟ عفية ناس أبداً ما تستحي..

ياسر (وهو يحاول أن يبتعد بالحاج محمود إلى منطقة ثانية من الأفكار، بينما يرى المرأة الحامل في حالة من ذهول):

– حاج محمود، كلامك على راسي، بس على كيفك، شوف هذا المجنون، أكيد إنت تعرف هو منو وابن منو؟ (الحاج محمود ينظر إلى وجه ياسر كمن يسأله عن حقيقة هذا الرجل) هذا اسمه عبدالله السعدي، جان يكدر لو عايش بغير هاي الديرة يصير أكبر كاتب والناس تشيله بالصلوات ويغرق بالفلوس هو وأهله وكاريبه، ومكن حتى إحنا اللي عايشين بصفهم هم نغرق بالدنانير.. بس المسكين دزوه الجزيرة "مجمون" وشاف عشرات الآلاف من أخوته ينذبحون كدام عينية، المرأة الحامل (وقد سمعت شيئاً من كلام ياسر):

– الله يذبحهم بيوم أسود.. دخيلك يالعباس.

الحاج محمود (دون أن يلتفت إلى كلام المرأة):

– لا إله إلا الله، مجنون وجابت مجنون.. لك هاي غير جزيرة كشرة.

ياسر (يستمر في حديثه):

– عمي محمود. مصيبة أهون من مصيبة، اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته.. عبد الله هذا جاب أكبر شهادة دكتوراه من جامعة ما

أدري شسمها بفرنسا.. بس الجماعة كالوله لازم تخدم عسكرية تسعين يوم.. والمسكين أول ما طب الجيش صارت الحرب ويه إيران واشتعلت المدافع والدبابات.. وشوف آخرته، ست سنين يدرس بفرنسا علمود يتخبل إهنا!

الحاج محمود (بغضب جم وقد عادت أعصابه إلى الثورة والانفلات):

– هذا بلد يأكل ولده.. ناس ما تستحي.

ياسر (يتذكر المجنون بهدوء فاجع):

– لا عاب حلكك حاج محمود. أي والله صحيح، هذا البلد ما يشبه أي بلد في الكرة الأرضية.. شوف.. آني هسه معوق ويريدون أن يرجعوني للجيش.. أكو هيجي جريمة مكشوفة؟ هو آني نص آدمي. ومع ذلك...

الحاج محمود (يقاطعه بغضب):

– ما يستحون، والله العظيم ما يستحون.

المرأة الحامل (وهي تنظر إلى السماء بعد صوت انفجارات عنيفة):

– لعد شنو حقوق الإنسان؟ أشو كل يوم حقوق الإنسان وهمه دايرين بالهم بس على الجلاب، وذوله (تشير إلى بطنها) شنو ذنبهم؟

الحاج محمود (يفقد زمام العقل منه):

– ناس ما تستحي، إحنا عايشين ويه ناس ما عدها ذمة ولا ضمير.

ياسر (وهو يخفف من غضب الحاج محمود):

– يا حاج محمود، على كيفك، صوتك صار كلش عالي ..

المجنون (يظهر ثانية وهو حزين هذه المرة):

– الرصاص لا يقتل الشهداء.. الخمرة لا تسكر الموتى.. الخروف لا يموت مرتين أمي حلوة، بس أمي تكول: كافي عاد، العمر ما يتكرر والخوف بس للنسوان.

الحاج محمود (وقد فقد السيطرة على أعصابه):

– عفية ناس ما تستحي.. ما بينها إنسانسة ولا ضمير ..

ثم بصوت أعلى:

– ناس أبداً ما تستحي..

ثم يكرر بلهجة أقوى وأعلى، ثم أعلى وأقوى، وقبل أن يسقط الحاج محمود، مغمياً عليه، من فرط الغضب، يتمكن من الصراخ بآخر ما يملك من قوة في حنجرته.

الحاج محمود (بصوت غلبته الأوجاع والتأوهات):

– ليسقط هذا الجنرال..

ثم راح يكررها وهو يشعر بالفخر والانعتاق والحرية:

– ليسقط الجنرال.

المجنون (وهو يسمع كلام الحاج محمود، ينطق كما العقلاء تماماً):

– يسقط الجنرال، إي، ليش ما يسقط يعني؟

ومثل دوي غامض عجيب غريب طارئ بعيد قريب، راحت المدينة كلها – خشبة المسرح وما خلفها وعبر المؤثرات الصوتية الممكنة – تصرخ مرة واخدة بسقوط الجنرال.. أما ياسر (وقد رأى الدنيا من حوله تصرخ بسقوط الطاغية) فقد سقطت الدموع من عينيه كما المطر، وراح يقول بينه وبين نفسه وقد غمرته الدهشة والسعادة.

ياسر:

– معقول؟ هل تاريني أصدق ما أسمع الآن؟ أنا والله خائف أن أقولها مثلهم، أعترف بأنني خائف.. من يصدق أن هذا الحلم العظيم يمكنه أن يأتي ذات يوم؟...

– ثم بينه وبين نفسه بحيث يسمعه المشاهد يمضي ليقول وهو يمسك نفسه من فرط السعادة – ليسقط الجنرال..

ياسر (مرة ثانية وبصوت أكثر شجاعة):

– ليسقط الطاغية الكبير.

صوت رصاص كثيف، كثيف وغزير جداً، يسمعه المشاهد قبل أن تدخل مجموعة من العسكر (ليس العساكر الذين أعتدنا رؤيتهم بيننا، ولكن عساكر بثياب زرق خاصة) وهي تطار الناس دون أن تفرق بين صبي أو عجوز أو امرأة.. بل وكل شيء يتحرك أمامهم، يستمر الرصاص بكثافة خلف الناس وهو يهربون – هذه المرة – من رصاص عراقي وعساكر عراقيين.

الحاج محمود (وهو يرفع يده نحو السماء):

– كلشي إلا هاي، يارب، معقولة هاي الدنيا؟ العدو من فوك وأهلنا من جوه؟ انقد أولادنا يارب.

(رصاصة تخترق الحاج محمود فيسقط قرب صورة الجنرال، وبينما ياسر وهو على عكازته يحاول أن يهرب من الرصاص، يرى الحاج محمود وقد مات مضرجاً بالدم قرب يديه)

ياسر (بغضب عميق ساحق):

– كلاب، سفلة، حتى هذوله (ويشير إلى طائرات العدو) أرحم منكم.. سفلة وحوش.. قتلة.

(رصاص كثيف في كل جزء من جسد ياسر، يسقط هو وعكازته قرب جثة الحاج محمود، وهكذا يسقط جميع من كانوا على خشبة المسرح بما في ذلك ياسر والحاج محمود والنساء والأطفال.. وقبل أن تأتي

الرصاصة التي ستقتل (المجنون) نسمعه يصرخ بقوة ووعي وهو يعتلي إحدى خرائب ومخلفات الحرب)..

المجنون (قبل أن يسقط برصاص العسكر):

– وداعاً يا عراق.. وداعاً يا وطني..

الرصاص ينهش جسد المجنون، يسقط أرضاً، لكنه لم يمت بعد، تتحرك مجموعة العسكر بطريقة دموية سفاحة لقتل أي شيء يتحرك، لما كانت صورة الجنرال قد اهتز مكانها بسبب سقوط الحاج محمود على مقربة منها، فقد تحركت الصورة قليلاً وبصوت مفاجئ، مما جعل العسكر يمطرونها برصاص غزير..

ياسر (وقد تمكن في لحظة من الزمن أن يرفع يده عالياً، وقد رأى العسكر يضربون صورة مولاهم وطاغيتهم الكبير)..

– وداعاً يا عراق..

الآن، وقد هدأ المسرح من الرصاص، نسمع صراخ "طفل" يولد فوراً.. العساكر ينظرون إلى بعضهم، بينما صوت الطفل يزداد قوة، والستارة تنزل هادئة ولا يبقى خلفها سوى صراخ الوليد.

9 شباط 1999

الفهرس

- أول حرب جميلة 7
- جمهورية العوانس 35
- ليلة السحلب 63
- الذي ينام مبكراً 81
- هكذا أفضل يا مروان 101
- أرجوك أن تبتعد قليلاً 123
- صباح الخير يا بتول 143
- هذه المرة نعم 165
- الخمرة لا تسكر الموتى 185